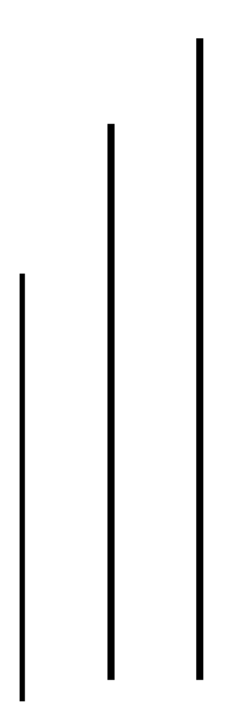
أ. د. حسين جمعة



اللغة العربية

إرث وارتقاء حياة

البريد الالكتروني: E-mailnet.sy@Vunecri
aru@net.sy

موقع اتحاد الكتّاب العرب على شبكة الإنترنت

http://www.awu- dam.org

الإخراج: سنديا عثمان

❑❑

أ.د. حسين جمعة

اللغة العربية

إرث وارتقاء حياة

منشورات اتحاد
الكتاب العرب
دمشق

سلسلة
الدراسات ()

٢٠٠٨

الإهداء

إليك أيتها اللغة المغروسة
في أرواحنا عبقاً عطرياً والتي
تتحول على شفاهنا أغاني
عنادل للشوق والحنين الممتد
إلى الجذور وإلى الألق المعانق
للشمس
إليك أيتها اللغة الجميلة
المنبثقة من نور السحر،
وجداول التوق الأبدي إلى
تكوين الغد الأفضل

أقدم هذا الكتاب

مقدمة

ما فتئت اللغة العربية تمثل أصالة الامتداد إلى الجذور، وتعبر عن عشق الروح الأبدي لنور الصباحات الرائعة التي تطل على شواطئ الندى، وأقاحي القصائد السندسية، وآيات النثر المزنر بالبهاء والكمال...

ولا تزال اللغة العربية مهوى خفقان قلوب أبنائها الأوفياء، وهم يتغنون بسحرها الحلال، فيرون حروفها وكلماتها وعباراتها وصورها ملء الفؤاد والكون... وهي التي اتسعت لتوق الوجد؛ وجلال الموضوع؛ وصفاء التنوع، وفضاءات العمر المعانق للتاريخ الحضاري الأصيل...

ومن ثم فإن للغة العربية رصيداً ضخماً من تجليات الشعور والوعي؛ والابتكار والاختراع الذي يتعالى على الدهشة والاغتراب؛ والفوضى والانحراف، والعبث والتخلف...

لهذا يتساءل أحدنا وقد آل أمرها إلى ما آل إليه في عالم اليوم؛ ونحن نطمح إلى إعادة ماء المجد إلى محرابها المقدَّس: كيف يمكننا أن نوزع حروفها وكلماتها أفناناً من الكلام العذب والرحب ليتفيأ الجمال في ظلالها، والعلم والمعرفة في أعطافها؟...

لعل هذا ما ينبغي أن يتبارى فيه المتبارون، وأن يتنافس المتنافسون في حبها وحراستها... وقد تغنت الحناجر برسوم مفرداتها؛ وتكحلت العيون بعطر أريجها... وطفق عشاقها يرنون إلى رؤيتها وهي تفرد لؤلؤ عباراتها في كل أهداب الحياة ثقافة وعلماً، مصطلحاً وتقنية؛ جمالاً وفناً، أدباً ونقداً... فكتبوا الكتب الكثيرة التي تطوف في بساتينها الغناء...

ولعل هذا ما جعلني أفرد أشرعة هذا الكتاب، واللغة العربية تتمثل في خاطري وناظري ياقوتة خضراء تنسكب في موج الحياة والأدب؛ والفكر والفن دون أن أحيف على المنهج العلمي الذي يتناول بعض همومها وقضاياها... ولاسيما أنها صارت صنو الأمة، والأمة صنوها.

فاللغة العربية غدت شلال النبض الحي المتدفق في عروق أبنائها وقد شكّلها الأجداد ذات يوم معبرة عن نفسيتهم ومشاعرهم وأفكارهم وحياتهم فورّثوها أحفادهم حتى جاءت بنيتها متميزة طبيعة ووظيفة وهدفاً كتميزهم في ثباتها وتطورها كانت تتهادى على ذوب الكلمات الرقيقة ذات الحس الجمالي البديع...

لهذا يمدُّ هذا الكتاب أنظاره إليها وقد ران العجز والجهل، والتخلف والإهمال على غير قليل من أبنائها زمناً طويلاً، قصّروا في خدمتها. ولكنهم حين نظروا في المرآة نسبوا العجز والمرض والعلة إليها؛ وقد تجاهلوا أن اللغة التي أرادوها مرآتهم لا ترتقي إلا بارتقاء أهلها، فضعفها يكمن في ضعفهم، وتجدد أساليبها يأتي على مقدار إبداعاتهم في ابتكار الأساليب والتفنن بها... ومن ثم يمكنها أن ترود آفاقاً بديعة مخترعة طبيعة ووظيفة، وتغدو قادرة على إنتاج المصطلح والمعرفة والتقنية و... هكذا كانت أيام الأجداد، وهكذا يمكن أن تكون في قابل الأيام، وهي التي جابهت كل عوامل القهر والإلغاء والتشويه والتحريف...

وبناء على ذلك فقد قسَّمت الكتاب أربعة فصول، عنوان الأول (اللغة إرث متصل) واشتمل أربعة أقسام (اللغة مفهوماً ونشأة وبنية، ومستويات اللغة ووظائفها، واللغة العربية ارتقاء وتراجع، والخصائص الأصيلة المشتركة)... وفي هذا الإطار تناول مفهوم الميزان الصرفي ونظام الجملة العربية بما بُنيت عليه من مسند ومسند إليه، ورأى أن كليهما لا يزالان يعبران عن

الأصالة اللغوية منذ النشأة الأولى علماً أنهما يرمزان إلى بنية الأسرة العربية وروحها في الحياة والثقافة.

وقد استند هذا القسم إلى المنهج التاريخي والاجتماعي واللغوي وفق مفهوم العلامات اللغوية المستمرة في بنية اللفظ والجملة؛ وفي طبيعة الاتجاهات الفكرية والأدبية والثقافية فتناول امتداد اللغة ـ فضلاً عن ذلك ـ في الأمثال والحِكم والوصايا، والدراسات المتنوعة، وبخاصة الدراسات التي عالجت ماهية النص القرآني اللغوية، وما حوته المعجمات من ظواهر لغوية..

وعنوان الفصل الثاني (شجون وحقوق) وعالج ثلاثة أقسام (الواقع اللغوي، والحفاظ على العربية، واللغة العربية جوهر الوجود العربي ووحدته).

وانطلقت معالجة هذا الفصل من صميم شيوع الأنساق اللغوية الأجنبية التي بدأت تغزو الأنساق اللغوية العربية على لسان الخاصة والعامة، وعلى مختلف صُعد الحياة والثقافة والأدب والعلم.. وقد تبين الضّعف والعجز في أبناء الأمة عن مواجهة التحديات اللغوية والعلمية، في الوقت الذي أدّت قلة الوعي بجمال العربية وأسرارها إلى فقر لغتهم وعدم لحاقها بالتطور اللغوي الذي تشهده اللغات الحية الأخرى... لهذا كان القسم الثاني الذي توقف عند مسألة الحفاظ على اللغة العربية، وبيَّن أن القرآن الكريم الذي حفظ اللغة قد قام بالمهمة ـ ولا يزال كذلك ـ بيد أن التحول السياسي يطيح اليوم بكل أسباب الحفاظ على اللغة العربية محادثة وكتابة وفق ما أثبتته تجربة التتريك؛ إذ تحولت تركيا إلى الحرف اللاتيني، وأشاعت استعمال اللغة التركية ومنعت استعمال العربية في الحياة والثقافة والأدب... فانزوت العربية بعيداً.. بعكس ما فعله القرار الرسمي في إيران بعد مجيء الثورة الإسلامية سنة (١٩٧٩م).

ولمّا كان ذلك كذلك كان القسم الثالث (اللغة جوهر

الوجود العربي ووحدته) إذ غدت اللغة العربية مشكلة لهوية الوطن والأمة؛ فتطابق ذلك مع أحدث الآراء شرقاً وغرباً... وحين ارتبطت ظاهرة الهوية باللغة باعتبارها تخص مجموعة من السكان فإن ما تؤكده العولمة باستعمالها للغة الإنكليزية يعد خطراً كونياً على لغات الشعوب ومنها العربية... وهو ما أومأ إليه في هذا المقام.

ولعل هذا الفصل هو الذي أسلمنا إلى الفصل الثالث وعنوانه (اللغة العربية حاضراً ومستقبلاً) وهو أكبر الأقسام وقد ربطت المعالجة بين الوعي الأنثروبولوجي وبين الوعي اللغوي الثقافي والديني في ضوء الانتماء الصحيح.

وقد ضم هذا الفصل ثلاثة أقسام ـ وفق تلك الرؤية ـ: الأول تناول اللغة في ضوء كونها نتاجاً وظيفياً للحياة في الأسرة والمدرسة والبيئة الطبيعية والثقافية والعلمية والواقع الرسمي، والثاني ناقش (تجليات الوعي اللغوي) في إطار العناصر الموضوعية لتجاوز المشكلة اللغوية مثل (القرآن الكريم، وثراء أساليب العربية، واستمرار وجود نظام مرن ومتفاعل مع الحياة، وفي إطار العناصر الإنسانية مثل (القدوة الحسنة، وأساليب الترغيب، والإجراءات المتوخاة مما يقوم به كل معني باللغة).

ومن ثم من يعتصم بذلك كله فسَوف يتأكد أن اللغة العربية مادة للإبداع، وهي قادرة على تنميته والارتقاء به، في الوقت الذي تثري المعلم بطرائق تدريسية عدة لتربية ذلك الإبداع) وهذا ما عالجه القسم الثالث.

وهذا كله جعلنا نخصص الفصل الرابع والأخير لبعض السمات اللغوية، التي اخترناها دون غيرها، علماً أن كثيراً من الباحثين قد تناولوا سمات أخرى كثيرة فضلاً عن قضايا اللغة العديدة.

وقد توقفنا في القسم الأول عند مسألة (النوادر) في اللغة وعرضنا لها وفق رؤية وظيفية جديدة على صعيد

الاستعمال والثراء الأدبي، ما يثبت ثراء العربية وجمالها وتفردها بسمة لا مثيل لها في اللغات الأخرى. ولعل هذا هو الذي دفعنا إلى الحديث عن ظاهرة لغوية جمالية تتركز حول (جمالية اللسان في اللغة والحياة). وهو يمثل (القسم الثاني)، باعتباره نمطاً من الأبحاث التي تعالج دراسة الأصوات وجمالياتها، وفق أحدث الدراسات اللسانية الحديثة.

ومن ثم استقر الكتاب عند فهرس المصادر والمراجع، وخلص إلى فهرس المحتوى.

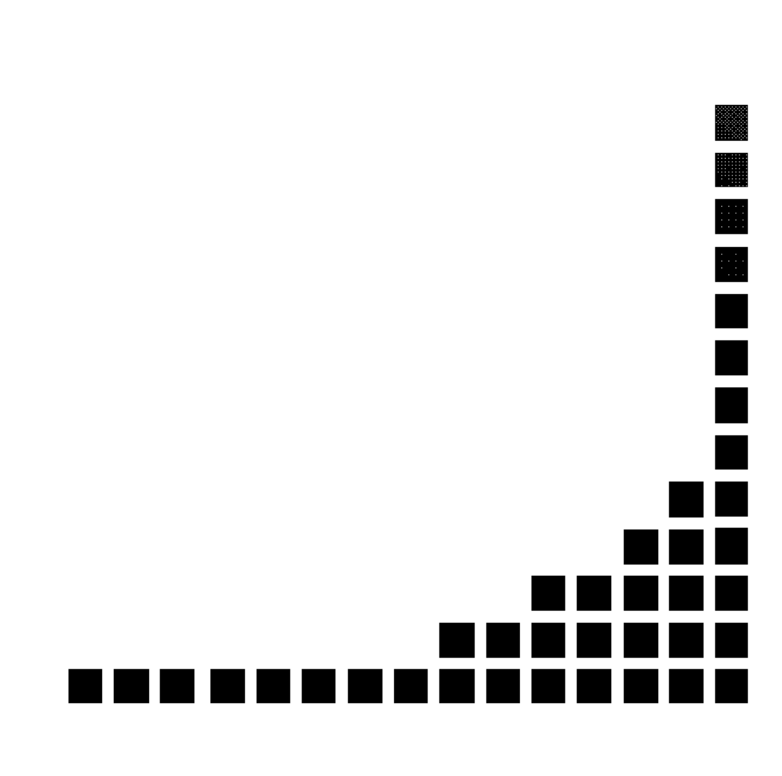
وبناء على ذلك كله فإني أرجو لمادة هذا الكتاب أن تقدم الفائدة المرجوة منها؛ وأن ترفد أخواتها في خدمة لغتنا الشريفة راجياً من قارئي الكريم أن يتغاضى عما وقع فيها من تكرار ـ أحياناً ـ وهو تكرار ناتج عن طبيعة الفصول، علماً أن الوظيفة مختلفة...

فإن وفّقتُ فبتوفيق من الله، وإلا فالقصور عند كرام القوم مقبول؛ والإنسان مركّب على النقص.

والله من وراء القصد ـ

حسين جمعة.

الفصل الأول:



اللغة إرث متصل

القسم الأول: اللغة مفهوماً ونشأة وبنية.
القسم الثاني: مستويات اللغة ووظائفها.
القسم الثالث: اللغة العربية ارتقاء وتراجع.
القسم الرابع: الخصائص الأصيلة المشتركة.

اللغة العربية إرث متصل

القسم الأول: اللغة، مفهوماً ونشأة وبنية:

قد لا يكون ما نتناوله جديداً كل الجدة، في طبيعته ومضمونه؛ فهو موضوع ذو شجون تعاورت عليه أقلام محلية وعربية عدة، ولكنّه يعدُّ ضرورة ملحة نحتاج إلى تأكيدها في ما آلت إليه حياتنا عامة، وما تعانيه لغتنا العربية الفصحى خاصة؛ وعلى صُعُد ومستويات عدة... فقد غدت لغتنا مأزومة بعدد غير قليل من أبنائها، ما جعلها تعاني إشكاليات كثيرة في مفرداتها وتراكيبها وأساليبها... وما وجود هذه الإشكاليات واستمرارها إلا نتيجة طبيعية لضعف الوعي الاجتماعي ـ الثقافي الوطني والقومي للغة العربية... ولذلك كان علينا أن نعرِّف اللغة لننتهي إلى الوسط الذي تعيش فيه لنناقشه...

فاللغة هي مجموع الأصوات والرموز، والإشارات و... وقديماً قيل: هي الألفاظ التي يعبر بها الناس عن مشاعرهم وحاجاتهم وأفكارهم[١]، وأغراضهم بحسب طرائقهم.. أو هي ألفاظ تدل على معانٍ سواء كانت اسماً أم فعلاً أم حرفاً على حين يرى العالم اللغوي (دي سوسور) ـ أحد علماء القرن العشرين ـ أنها "عبارة عن نظام من القيم الخاصة فحسب"[٢].

واللغة: مفرد، والهاء فيها تعويض عن الواو، والجمع اللغات...[3] والفعل لغا يلغو.. ولغِيَ يلغى... والمصدر منها اللّغْوُ؛ واللغو: النُّطق. فنقول: هذه لغتهم التي يَلْغون بها: أي يَنْطِقون.. ولغات الطير: أصواتها؛ قال ثعلبة بن صعير:

---

[1] انظر كتابنا: في جمالية الكلمة (اتحاد الكتاب العرب ـ ٢٠٠٢ ص ١٨) وانظر ما يأتي ص ١٥٨ وما بعدها وص ١٨٨.

[٢] انظر. Sassure, F: 1972, P. 111.

[3] انظر لسان العرب ـ لغو ـ.

باكرتهم بسباءِ جَوْن ذارع قبل الصباح وقبل لَغْوِ الطائر

ولغي بالشيء يَلْغَى لغىً: لهج.

واستلغاني الناس: سمعوا لغتي، كقول الشاعر:

وإني إذا استلغاني القومُ في السَّرى بَرِمْتُ فألْفَوني بسرِّك أعجما

واللغة: اللسان، ويكنى باللسان ـ أيضاً ـ عن الكلمة كقول الشاعر أعشى باهلة:

إني أتتني لسانٌ ما أُسَرَّ بها من عَلْوَ لا عَجَب منها ولا سَخَرُ

فاللسان: اللغة، وعليه قوله تعالى: [وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه] أي بلغة قومه (إبراهيم ١٤ /٤) ومثله اللّسْن، كقول المتنبي[1]:

تجمّع فيه كُلَّ لِسْنٍ وأُمَّةٍ فما تُفهِمُ الحُدَّاثَ إلا التراجم

وهنا نُبين أن لفظ اللغة لم يرد في القرآن الكريم؛ وإنما ورد المصطلح الدال عليه وهو مصطلح "اللسان".... وهذا المصطلح أحدث ما انتهت إليه الدراسات اللسانية في القرن العشرين بينما استعمله الإسلام قبل أربعة عشر قرناً لأنه مادة النطق.

فاللغة ـ وأعلاها المنطوقة والمكتوبة ـ أداة للاتصال والتواصل في حياة الناس، ووسيلة أصيلة لمعالجة شؤون

---

[1] ديوان المتنبي ٣/٣٨٥ ـ شرح العكبري ـ ضبطه مصطفى السقا وزميليه ـ دار المعرفة ـ بيروت ـ د/ تا.

انظر ما يأتي في الفصل الرابع: القسم الثاني (جمالية اللسان ص١٥٤ وما بعدها).

مختلفة كالبحث والتحليل والنقاش، إنها نظام مجرد لكل ما هو مادي ومعنوي.. ما يعني أن أي شعب يستعمل اللغة ليعبر بها عما يؤمن به ويشعر ويعتقد ويفكر... فهي وسيلة لبلوغ أهداف ووظائف يرغب فيها المرء سواء كانت منطوقة أم مكتوبة أم كانت إشارة أم رمزاً أم رسماً أم نحتاً... وكذلك هناك لغة الجسد، ولغة الحركة، ولغة النار ... ولغة بريل... ولغة الموسيقى والإيقاع، ... ولكل منها وظائفها الخاصة بها وأنساقها الفكرية الدلالية والجمالية والفنية.. وهي لغة تنشأ من الوظائف الاجتماعية والحاجة التي تلبي رغبات الإنسان، منذ الطفولة ثم ترتقي طبيعة ووظائف. فالطفل يشكل عالم اللغة الخاص به من المفردات التي يتعامل معها في محيطه ليكون مفاهيم محددة تعبر عن إرادته ومشاعره، وأفعاله. فهو مثلاً إذا لم يستطع أن يتسلق شجرة، فإنه يستخدم شيئاً وسيطاً للارتقاء إليها كطاولة أو غيرها، ولكل من هذه وتلك محددات لغوية خاصة؛ ما يعني أن اللغة صورة طبيعية موازية لاستخدامها في الحياة؛ أي إن اللغة تدل على عقل إنسان ما وسلوكه، أو على خصائص شعب ما، إذ ترمز إلى مستواه الثقافي، ورقيه الحضاري... ثم هي ضرورة اجتماعية، وظاهرة ثقافية تصل الأجيال بعضها ببعض، ومن ثم تصل بين الأكوان والشعوب[١].

فهناك علاقة جدلية بين اللغة والمجتمع من جهة وبين اللغة والفكر والثقافة والفن والأدب والشريعة والقانون.. من جهة أخرى. وكم من إنسان يراها وعاء للفكر متعلقة به منذ وجودها، وهي تتميز بخصائص الجماعة التي تنشأ فيهم، إذ تعبر عما يشعرون، ويفكرون، ويستعملون، ويجربون... وبها تثرى خبراتهم ومعارفهم في إطار التعبير عن التوسع والتنوع والاختلاف الذي يقع في الحياة، أياً كانت درجة القرابة وتشابه

---

[١] انظر ـ مثلا ـ في علم اللغة العام ـ عبد الصبور شاهين ـ مؤسسة الرسالة ـ بيروت ـ ١٩٨٠م ـ ص٢٧. وانظر (في اللغة والفكر) ـ عثمان أمين ـ معهد البحوث والدراسات العربية ـ جامعة الدول العربية ـ القاهرة ـ ١٩٦٧م ـ ص٣٥.

الأنساق فيها وفي أصحابها.

وهذا يشي بأن اللغة كانت في الماضي السحيق أو القريب تنتمي إلى أرومة واحدة ـ وكذا الكتابة ـ ولمّا تبلبلت الألسنة اختلفت اللغات وتباينت لشدة ارتباطها بالأنساق الزمانية المكانية؛ الاجتماعية والتاريخية. ولا شيء أدل على هذا الشأن من تباين اللغة الفرنسية عن الإسبانية على الرغم من انتمائهما إلى أصل واحد وهو اللغة اللاتينية، أما اللغة العربية الفصحى فقد بقيت ثابتة لثبات الخصائص الزمانية ـ المكانية لأهلها، ولبنيتها الحيوية؛ على الرغم مما تعرضت له من غزوات شتى لإكراهها على التنازل لغيرها...

ولسنا نشك في أن اللغة العربية تعد الجسر الذي يصل بين الأجيال في الماضي والحاضر والمستقبل ما يؤكد ثباتها من جهة وتحولها إلى أشكال متطورة من جهة أخرى في إطار الارتقاء المعرفي والعلمي. فهي بثباتها وتحولاتها تظل محافظة على نظامها النحوي والصرفي والبلاغي والصوتي، ما يجعلها متماسكة في نقل التراث وكأنه ممتد في الزمان والمكان والثقافة دون تغيير، بعكس ما يقع لعدد من أبنائها الذين يتحوّلون عنها. ومن ثم فإن النمط اللغوي العربي، يتطور شكلاً، ومضموناً دون أن يتناقض مع عنصر الثبات في الوقت الذي يدفعنا إلى القول: إن أي تطور لغوي في المفردات والتراكيب والصور والأخيلة يرتبط بالنسق السلوكي السائد في حياة قوم ما، فخبراتهم وثقافتهم وأدبياتهم وفنونهم، وعاداتهم وتقاليدهم و.... هي التي تحدد أوضاع اللغة، ما جعل (تايلور) يعرف الثقافة تعريفاً يلتصق باللغة الاجتماعية. فرأى بأنها ذلك الكل المركب والمعقد والمكتسب بكل ما يشتمل عليه من معارف وعقائد وعادات وأعراف وفنون وأخلاق وقانون.. أي إن الثقافة هي ذلك الشكل الذي يشتمل على الإنجازات الاجتماعية والثقافية المادية والمعنوية للتراكيب اللغوية بكل عناصرها ومكوناتها[1].

---

[1] انظر Ediward. E.Tylor, the Primitive Culture, London, John

وعليه فقد اشتدت عناية علماء اللغة والباحثين الاجتماعيين بالدراسات الأنثروبولوجية منذ بدايات القرن العشرين، حين ربطوا اللغة بالبيئة الاجتماعية والثقافية، وبذلوا محاولات حثيثة لقراءة التاريخ اللغوي وفق هذا التصور... وقد تميزت الجامعات الأمريكية المعاصرة في هذه الدراسات منذ ستينيات القرن العشرين، إذ ازدادت قيمة الدراسات الأنثروبولوجية على يدي اللغوي الأمريكي الأنثروبولوجي (دل هايمز Dell Hymes) حين قدّم جهوداً كبرى في هذا الاتجاه[١].

ولعل الأمانة العلمية تحتم علينا الإشارة إلى أسبقية العرب في مثل هذه الدراسات، إذ عالجوا مضمونها، وإن لم يقفوا على مصطلحاتها. وكان "أبو الريحان البيروني" قد تحدث عن قيمة اللغة واختلافها بين الأقوام تبعاً للبيئة الاجتماعية والثقافية؛ فقال: "يجب أن نتصور أمام مقصودنا الأحوال التي يتعذر فيها استشفاف أمور الهند، فإما أن يسهل بمعرفتها الأمور، وإما أن يتمهد له العذر، وهو أن القطيعة تخفي ما تبديه الوصلة؛ ولها فيما بيننا أسباب، منها أن القوم يباينوننا بجميع ما يشترك فيه الأمم، وأولها اللغة"[٢].

إذاً اللغة ـ باعتبارها الصوتي ـ عنصر محايد، ولكنها في مجموع أصواتها لفظاً مفرداً وتركيباً ليست محايدة؛ إذ تصبح مجموعة ألفاظ تعبر عن مشاعر جماعة ما، وما يتواضعون عليه من أفكار وثقافات، فضلاً عن التصاقها بالبيئة الطبيعية التي تقطن فيها تلك الجماعة[٣].

هكذا قدَّمت لنا الدراسات اللغوية جملة من الإضاءات

---

[١] انظر Hilary Hemson, British social Anthropolgists and language, op, cit, P. 51 Marry. 1913. P.3

[٢] انظر (تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل، أو مرذولة، ـ مجلس دائرة المعارف العثمانية ـ حيدر آباد الدكن ـ الهند ـ ١٣٧٧هـ ـ ص١٣٢.

[٣] انظر تاريخ علم اللغة منذ نشأتها حتى القرن العشرين ٢٤ ـ ٢٦ و ٥٢ ـ ٥٤ و ٦٥ وكتابنا (في جمالية الكلمة ـ ١٨ ومابعدها).

المفيدة والمثيرة حول مفهوم اللغة ونشأتها وتطورها وأنواعها ووظيفة كل نوع فيها، في الوقت الذي عالجت خصائصها المميزة.. ودلّت طبيعة أي لغة على معنى حضاري ما..

فاللغة ظلت تتجدد بتجدد الفكر والحاجات والعادات حتى انتهت في التاريخ القديم إلي الحروف والمقاطع؛ واخترع كل شعب ما يلبي حاجته من تلك الحروف كما نجده في السومرية والآرامية، والهيروغليفية.. ولا يستطيع بحث لغوي ما، مهما أوتي من العمق والإحاطة أن يبين لنا شكل اللغة الأولى للإنسان.. هل كانت محاكاة، والنفس تلتذ بالمحاكاة؛ ثم أصبحت تواضعاً؛ دون أن يتناقض هذا مع الرأي القائل: إنها توقيف في أصل تعليمها للإنسان، إذ وضع الله فيه الملكة والقدرة علي التعلم؛ باعتبار الإنسان صورة للصانع الأكبر؛[1].. ولهذا فهو يمتلك بالقوة خواص الصانع الذي أحكم خلق الكون..

ثم انعقدت بين الإنسان والحياة والطبيعة علائق وثيقة طوّرت لغته ومن ثم انشعبت تبعاً للبيئة الاجتماعية والاقتصادية والطبيعية...

ولا شك في أن مفهوم اللغة وتاريخ نشأتها يختلفان عن مفهوم الكتابة؛ وتاريخها وتطورها؛ وإن ارتبط كل منهما بالآخر في أذهان الناس..... علماً بأن الكتابة تمثل رموزاً للغة؛ ولا سيما في نشأتها الأولى. وهنا نسجل لأجدادنا العرب القدامى من الكنعانيين والسومريين والآراميين والفينيقيين إجلال البشرية لهم وتعظيمها لاختراعهم.. فقد احتلوا مكانة عظيمة في التاريخ الإنساني حين أبدعوا لنا الأبجدية الأولى للبشرية التي وصلت إلينا من جبيل في لبنان ورأس شمرا في سورية.. هذه الأبجدية التي استطاع العلماء حل رموزها؛ وأدركوا في ضوء تحليلها عظمة قيمتها التاريخية والحضارية.

ونرى أن هناك تطابقاً بين اللغة والكتابة في بداية نشأة

---

[1] انظر دراسات في العربية وتاريخها ـ محمد الخضر حسين ـ ١٠ – ١١، وتاريخ علم اللغة منذ نشأتها حتى القرن العشرين ٧ و ١٨ – ٢١.

الكتابة، حين كان الإنسان القديم يرسم ما يريد التعبير عنه، وفق ما ظهر في الكتابات القديمة للفراعنة كما تدل عليه الرسوم في (مدافن الملوك) بأقصر مصر... ومثلها كانت الكتابة السومرية في سورية وبلاد الرافدين... ثم ظهرت الحروف الأوغارتية التي بلغت ثلاثين حرفاً، على حين ظهرت الحروف الهيروغليفية التي بلغت اثنين وعشرين حرفاً وهي متطابقة في العدد مع أبجدية (جبيل)، وكلتاهما ترقى إلى القرن الرابع عشر قبل الميلاد ـ كما نعتقد ـ.

ويبدو لي أن اللغة الكنعانية انتقلت إلى الآرامية أو السريانية، وكلتاهما كتبتا بالأوغارتية... ثم امتدتا إلى اللغة العربية وحروفها على نحو ملموس، وفق ما سنشير إليه من ألفاظ كثيرة دخلت في صميم المعجم اللفظي. وكان عدد من علماء السريان قد ترجموا عن اللغة السريانية إلى العربية عدداً غير قليل من الكتب...

وفي صميم ذلك كله يبقى البحث في أصول اللغات مستمراً؛ لأنه ما من لغة بقيت كما هي؛ بل ارتقت بوساطة قوانينها وفِعْل أبنائها يوماً بعد يوم؛ فمثّلت على الدوام حال كل أمة تنتمي إليها وتعبر عنها.....

وتبقى اللغة العربية متصلة بجذورها التاريخية التي تؤكد وحدة الثقافة، والحياة، في الوقت الذي تؤكد فيه وحدة الشعور الذي ترعرع على الأرض العربية.

وعلى الرغم من ذلك فإننا نقر بأن أيَّ باحث لم يستطع أن يقول في هذا الشأن القول الفصل؛ وإن تعمّقت الدراسات اللغوية بشكل كبير في القرنين الماضيين.. فهذه الدراسات استطاعت أن تقف عند مصادر اللغة، وميزت بدقة طرائق كل لغة ومذاهبها في التعبير، والتأثيرات المتنوعة التي تعرضت لها.. ولكنها تناولت اللغة بما هو معروف للإنسان، لأنها عاجزة عن الإيغال في أعماق التاريخ.. إذ ظلت هذه الآراء قائمة على التخمين فيما يتعلق باللغة الأولى.

وحين ندرس اللغة باعتبار تنوعها تبعاً للجنس البشري لا بد من أن نتحدث عن موقع لغتنا في إطار بنيتها ودلالتها

ومستوياتها دون أن نخرجها ـ هنا ـ عما رآه اللغويون لأنها جزء من لغة الإنسان؛ وهي تنتمي إلى شكل من ثلاثة أشكال هي:

الشكل الأول: اللغات الفاصلة: وهي كل لغة لا تتغير بنية الكلمة فيها في حال إفرادها وتركيبها.. ولا زالت اللغة الصينية تمثلها حتى الساعة وهي تبلغ نحو (٧٠) ألف كلمة، يستعمل الصينيون منها نحو أربعة آلاف كلمة.

الشكل الثاني: اللغات اللاصقه: وهي كل لغة احتفظت بصيغة ثابتة ـ للكلمة في حال الإفراد والتركيب ثم سبقت بحروف أخرى أو ألحقت بها حروف لإيجاد معانٍ جديدة ليست لها في حالتها البنائية الأصلية؛ ويمثلها اللغة الفرنسية والإنكليزية واليابانية..

الشكل الثالث: اللغات المتصرفة: وهي كل لغة تتغير بنية الكلمة من داخلها؛ أو بإلحاق حروف بها أو تقديمها عليها، ومن ثم تتغير دلالاتها تبعاً لتغير المبنى.. ولا تكتفي بذلك بل تتغير دلالتها في حال التركيب تقديماً وتأخيراً، حذفاً وزيادة،.. وفي حال تنوع التراكيب بين الحقيقة والمجاز.. والإيحاء والإيجاز والاطناب.... وتعد اللغة العربية أبرز اللغات التي تتصف بذلك..

القسم الثاني: مستويات اللغة ووظائفها:

لا بد من أن لكل لغةٍ دلالةً ووظيفة، إذ اتفق علماء اللغة على أنها تتصف بأربعة مستويات في دلالتها:

ـ ***المستوى الأول؛*** هو المستوى الصوتي: ويعتمد على دلالة الحرف بذاته، أو بمقطعه الذي يدخل فيه،.. وقد تكوَّن وفق العلاقة الماثِلة بين الدال والمدلول.

ـ ***المستوى الثاني؛*** هو الصرفي: وتنتقل اللغة فيه من مجرد الصوت والحرف الذي يوحي بدلالته إلى البناء التكويني في تغير الدلالة مع تغير البنية.. سواء كانت التحولات التي تلحق بالكلمة خارجية أم داخلية.

ـ ***المستوى الثالث؛*** هو المستوى النَّحْوي: وتنشأ فيه أنظمة دقيقة تضبط التراكيب والدلالة معاً، وتستخرج لذاتها

قوانين تربط بين الألفاظ بصورة دقيقة وفعالة في مختلف الحالات الدلالية والتركيبية.. لتتم عملية التواصل بشكل واضح ومفهوم.

ـ ***المستوى الرابع؛*** وهو المستوى الوظيفي: يعد هذا المستوى أرقى المستويات لأنه يجمع إلى المستويات السابقة وظائف كبرى في مقاصد اللغة.. وجماليتها في وقت واحد... وتغدو اللغة وسيلة وغاية؛ معاً؛.. ومن أهم وظائف اللغة في هذا المستوى:

١ ـ ***وظيفة الاتّصال:*** تصبح اللغة في أعلى مستوياتها وسيلة تفاهم اجتماعي وفكري وفني ونفسي.. وتحقيق عملية الالتقاء بين أفراد الجنس البشري وإن اختلف الزمان والمكان والأفراد.. والثقافة. ومن ثمّ صارت اللغة نمط حياة، يتقنه كل فرد من أفراد المجتمع، كما كان عليه الشأن في العصر الجاهلي الموغل في القدم.

٢ ـ ***وظيفة الاختزال والتكثيف الدلالي:*** تجمع اللغة بين الحقل المعجمي والحقل الدلالي بشكل موجز ومؤثر.. وتنتقل اللغة فيه من المعاني الحقيقية إلى المعاني المجازية في إطار السياق والتراكيب الدلالية الاصطلاحية.... وتتنوع في طرائق التكثيف وهي تختزن التاريخ والواقع والحقيقة والمجاز؛ وهو ما يدل عليه الشعر الجاهلي..

٣ ـ ***الوظيفة الحضارية التاريخية:*** حين تصبح اللغة حاملة لقدرات هائلة في وظيفة الاختصار والإيحاء فإنها تتسع في فضاء المفاهيم وحقل تكوين النتاج الفكري الذي تنتجه الأجيال.. ويكون من مهمات اللغة نقل هذا النتاج لكل الأجيال والبيئات الاجتماعية والثقافية.. فالحقل الدلالي للغة ينتقل من مجرد حقل خاص بمجتمع ما إلى أن يصبح حقلاً دلالياً إنسانياً وهو ما انتقلت إليه اللغة العربية في صدر الإسلام، أي لم يعد الحقل الدلالي المعجمي عائقاً في سبيل تطور الحقل الدلالي التوليدي والمجازي والإنساني.. واليوم لن يتحقق لنا ذلك دون أن نقيم ورشات عمل لغوية تضع المفاهيم والآليات، لتنفيذ ما نحتاج إليه من خلال التجريب وفق مبدأ العيّنات والاستعارة،

وإتقان مبدأ التعريب والاشتقاق والنحت والتركيب وغيره.

٤ ـ ***الوظيفة الجمالية:*** وهي وظيفة تعبير مؤثرة ومفيدة، وتضم فيما تضم اللغة الشعرية، وشعرية الأجناس الأدبية والفنية.. وتغدو الأشكال الفنية الأدبية مدار اهتمام الدارسين في إدراك ماهية الجمال التشكيلي للغة النص وعناصره الفنية الأخرى في أنساقها التركيبية وفي سياقاتها المتعددة... وتدرس اللغة الجمالية من جهة تكوينها وتركيبها وأنظمتها الأسلوبية واختلاف حقل الدلالة في ذلك كله... فالوظيفة الجمالية لم تعد تتوقف عند حقل الدلالة المعجمية أو المجازية، أو التكثيفية البلاغية، أو عند الإيقاع والصوت.. وإنما أخذت تُعْنَى بالتشكيل الجمالي اللغوي ذاته في تنوع دلالته وعمقه وتأثيره، ونظامه.. ومن هنا تتجدد هذه الوظيفة مع تجدد الآراء والنظريات النقدية على مدى العصور.

وهذا كله يفرض على الباحث أن يبرز مفهوم اللهجة التي تنقلب إلى لغة في بعض الأحيان أو تدخل في ظاهرة الاشتراك حتى تصبح من صميم اللغة في أحيان أخرى.

فأياً كانت اللغة في جنسها ومستوياتها ووظائفها فإنَّها قد تتفرع تبعاً للهجاتها، ثم تنقلب اللهجة بعد تبنِّيها اجتماعياً وثقافياً وسياسياً لغة مغايرة للغة الأم... فتكتسب اللهجة في مسيرة تطورها خصائص تنفرد عن اللغة الأصلية.. وهذا ما حدث مع اللغة اللاتينية التي أنجبت الفرنسية والإسبانية.. وغيرهما من بقية اللغات الأوربية في العصر الحديث.

واللهجة بعد أن كانت مختلفة في النطق عن اللغة الأم شرعت تتخذ لنفسها أصواتاً جديدة وأنظمة تغاير الأنظمة القديمة..

أما اللهجة في العربية فظلت تتميز باتصالها باللغة الأم وظلت قوانينهما متشابهة إن لم نقل إنها متطابقة... ولا تزال عالقة في اللفظ ولم تصل إلى غيره.

ولهذا فإن تعريف اللهجة يعني أسلوب أداء الكلمة إلى السامع من مثل إمالة الفتح والألف، أو تفخيمها أو ترقيقها أو تسهيل الهمزة أو تحقيقها في جرس الألفاظ وصوت الكلمات..

فهي تتعلق بالأصوات وطبيعتها وكيفية أدائها... وفق قانون الجهد الأقل.

وهذا لا يعني اختلاف ألفاظ اللغة بشكل مطرد بين اللهجة واللغة الأم على ما قيل من بعد المسافة بين أبنائها كما روي ـ قديماً ـ عن لغة حمير من عرب الجنوب ولغة عرب الشمال.. فنحن نرى اشتراكهما في كثير من صورة الأبنية، وتماثل النطق وإن اختلف المعنى كما نجده في لفظ (السُّدفة) ـ عند عرب الشمال ـ فهو يعني الظلمة عند تميم؛ والضوء عند قيس..[1]

وفي ضوء ذلك كله ندرك أنه ليس بالضرورة أن تنفصل اللهجة لتشكل لغة متمايزة من اللغة الأم، فربما تتوحد فيما بينهما لتشكل لغة أدبية موحدة؛ على بقاء اللهجة مستعملة في نطاقها المحدود..

ولعل ذلك كله هو الذي كوَّن ظاهرة الاشتراك والترادف في اللغة العربية، وهو ما ندر في غيرها من اللغات الحيَّة.. مما يدل على غناها واتساع موادها.. حتى قيل: إن في معجم (لسان العرب) لابن منظور مئة وعشرين ألف مادة.. ولم يشتمل لغة العرب كلها.

وبهذا كله تكمن قيمة اللغة العربية وقد أدرك العلماء أهميتها في البعد الاجتماعي والفكري والثقافي... واستشعروا تميزها في حالة الارتقاء والتراجع، وهو ما نعالجه في الفقرة الآتية.

القسم الثالث: اللغة العربية ارتقاء وتراجع:

ـ لم تكن اللغة ـ أي لغة ـ في يوم من الأيام مجرد أداة للتواصل والتعارف بين أبنائها أو بينهم وبين الآخر، ولم تكن مجرد وعاء فكري ثقافي سياسي اجتماعي أدبي فني محايد.. وإنما هي كل ذلك في صميم استمرار حياة الأمة وتجسيد روحها المميزة لها... فاللغة خطاب متعدد الوظائف

---

[1] انظر الواقع اللغوي العربي القديم ٥٦ ـ ٦٢ ولسان العرب (سدف).

والأهداف[١]، وربما يحمل في نظامه البنائي وسياقه المتنوع كثيراً من الدلائل، علماً أن الكلمة الواحدة، أو الجملة الواحدة تصبح ذات معانٍ شتى إذا تبدل السياق.

ولعل الإمام عبد القاهر الجرجاني (ت: ٤٧١ هـ) قد أدرك الغاية الكبرى من اللغة ونظامها؛ فيما تبناه في (نظرية النظم) التي اشتهر بها في كتابه (دلائل الإعجاز)، ما يفيد بأن أهدافها ووظائفها لا تستبين إلا في أوضاعها الدقيقة التي بُنيت عليها في تناسق الدلالة وتلاقي المعاني على الوجه الذي يرتضيه العقل من أجل الاتصال والتفاهم والتعبير[٢].

وبناء عليه فاللغة العربية؛ هي اللسان الأم الذي ينطق بها ما يزيد على /٣٠٠/ مليون عربي ويعرفها ما يزيد على مليار إنسان. فهي لغة ممتدة في الزمان والمكان، ولم تكن في يوم من الأيام لغة طارئة، إنها "اللغة القديمة التي تعود إلى ما قبل التاريخ، والتي ترقّعت عن لهجات الخطاب منذ زمن، ورويت لنا كابراً عن كابر" [3].وهي إحدى مقومات الوجود العربي، والمعبّرة عن ذاته وهويته وثقافته، وبها يُعْرَف. بل أضحت في عرف كثير من الدارسين أكمل اللغات السامية وأرقاها، تنشأ وتتكاثر كالكائن الحي.

لهذا استطاعت على مدى وجودها أن تقدم خدمات جُلّى لأبنائها ولاسيما أنها صارت مادة فنية للأمثال والحكم والخطب والرسائل والقصائد الجميلة؛ ولعل أكثرها جمالاً ما عُرف في العصر الجاهلي بالقصائد العشر.

ومن ثم قدمت خدمات متعددة الاتجاهات في القديم والحديث لأبنائها ولأبناء البشرية.

هكذا تدرجت اللغة في الجاهلية الأولى، وتلقفتها الجاهلية

---

[١] انظر اللغة والهوية – تأليف جون جوزيف – ترجمة د. عبد النور خراقي- ص ٣٥ – ٤٨ – سلسلة عالم المعرفة – الكويت – آب / أغسطس ٢٠٠٧م/ العدد ٣٤٢ ودراسات في العربية وتاريخها ١٠.

[٢] انظر: دلائل الإعجاز ١٤٣.

[3] العربية ـ يوهان فوك ص٨.

الثانية لتكون أعظم مادة يصوغ فيها العرب أفكارهم ومشاعرهم بأساليب مثيرة وساحرة، وما زالت ترتقي وتكتسب مفردات جديدة على الدوام في الوقت الذي تزود حقولاً غير معروفة، ثم جاء الإسلام فأغناها بحقول دلالية لا حصر لها، ووحَّد لهجاتها، وقدَّم لها خدمة لا نظير لها، إذ عَدَّها لغة العبادة، ما جعلها لغة كل مسلم، فتطاولت تعبيراً واستعمالاً. ولمَّا أثبتت أنها لغة قادرة على مواكبة الحياة واستيعاب العلوم والمعارف في الماضي بما تملكه من الصيغ الدلالية واللغوية القادرة على التوالد والنماء كانت هذه اللغة تؤصل ذاتها في محافل شتى وأماكن عدّة، فلا عجب بعد هذا كلّه أن تصبح لغة رسمية في هيئة الأمم المتحدة منذ عام (١٩٧٣م)، ثم في منظماتها عام (١٩٧٥م) كاليونسكو، وكانت الجمعية العامة منذ عام (١٩٦٣م) قد اعترفت بأثرها المهم في صون الحضارة الإنسانية، فضلاً عن كونها تمثل اللغة الرسمية لعدد من بلدان العالم ولاسيما الإسلامي؛ ليس على اعتبار أنها تتساوى في بعض الخصائص مع عدد من اللغات الأخرى وإنما على اعتبار أنها قادرة على تشكيل معارفها ومفاهيمها ومصطلحاتها في سياقها الخاص دون أن تتناقض مع العام.

ولعل هذا ما أدى إلى انعقاد المؤتمرات العالمية لاستخدام اللغة العربية إلى جانب الإنكليزية والفرنسية. فإذا كان بعض الناس يرون أن اللغة العربية ـ وبحجة الانفتاح الحضاري على العالم، اليوم ـ لا تستطيع مضاهاة نظام العولمة[1] باعتباره نظاماً معرفياً واقتصادياً جديداً يقبل عليه العالم بكل سلبياته وإيجابياته، فإن اللغة العربية كانت في القديم ـ وما تزال ـ مفتاحاً إلى الثقافة العالمية وعلومها اللغوية واللسانية، فضلاً عن أنها إحدى مقومات العقيدة الإسلامية، دون أن تلغي الآخر أو تحجر عليه، كما تفعل العولمة هذه الأيام، فالعربية استوعبت الفلسفة وأفكارها وتناولت كل ما يتعلق بها مثل

---

(1) انظر ما يأتي ص ٧٩ وما بعدها.

(القديم والمحدث، والوجود والعدم، والصورة والجوهر والعَرَض، والأزل والأبد، والعلة والمعلول، و...) وكذلك تعاملت مع مصطلحات الطب ومفرداته وأفكاره مثل: (التشريح والكحالة، والاستسقاء، والذبحة، والترياق، والبنج، والكافور و...) أما في الرياضيات فقد اتسعت العربية فيها لمصطلحاتها وأفكارها ورموزها مثل: (الدائرة، والقطر، والمثلث، والمخروط، و....). وكذا يقال في الجبر والفيزياء والكيمياء وغيرها.

إذاً، استطاعت اللغة العربية منذ القرن الثاني الهجري أن تتطور تطوراً كبيراً لتستوعب علوم اليونان والهند والفرس؛ ومعانيها، وتولّد كثيراً منها في ضوء مثاقفة إبداعية عقدت للعرب ـ من بَعْدُ ـ رياسة بعض العلوم والفنون لسنين طويلة في الوقت الذي قدَّمت لهم لغتهم سهولة ومرونة لا تضاهى في التأليف والإبداع، لأنها تتصف بقوانين التفاعل مع غيرها من اللغات.

ويبدو أن شأنها اليوم مغاير لما كانت عليه نتيجة ضعف أبنائها حتى أخذت تظهر بأنها هي الواهنة، فقد بدأت العربية تتراجع عن أداء دورها الإبداعي والحضاري العالمي، فلم تعد تنمّي الذوق والعقل بالصور الساحرة والأفكار المفيدة؛ وصارت الثنائية اللغوية، أو ازدواجية اللغة مع العاميات من أبرز مشكلات العربية. فإذا كانت الأشكال الاستعمارية قد فرضت في الحياة الحديثة لغة ثانية كالفرنسية والإنكليزية أو الإسبانية أو الإيطالية أو ... أو أن هناك مشكلات وجدت وفق الحاجة أو وقعت نتيجة استعمال خلل البنية الصرفية والنحوية فإن الأزمة تتمثل بأشكال جديدة، أبرزها كثرة الدخيل، وشيوع العاميات المغرقة في المحلية، ثم قيل: إنها أصبحت عاجزة عن استيعاب المصطلحات والمعارف والعلوم التي تتفجر في بلدان العالم ما يجعلها تتعرض لنزيف داخلي، فرض عليها الانسحاب لحساب أي لغة عالمية أخرى وبخاصة اللغة الإنكليزية، على اعتبار أن هذه اللغة تمثل اليوم لغة العولمة التي تقودها أمريكا. فالمجتمع العربي غدا ـ غالباً ـ مجتمعاً

استهلاكياً لا إبداع فيه، لأنه يحتاج إلى كل ما تقدمه له المدنية الحديثة تقنياً واقتصادياً وثقافياً و....، وكل ذلك يأتيه بطريق الآخر ولغته، أي إن العقل العربي لم يعد منتجاً للفكر والإبداع، ولم يعد فارس الميدان سياسياً واقتصادياً ومعرفياً وعلمياً، فهو ضعيف متخلّف، يعيش على حلم مستحيل التحقيق لأنه لا يوفر له أدواته المطلوبة.

ولعل تراجع أهمية اللغة العربية في نفوس أبنائها قبل غيرهم يذكرنا بأن المدارس الأجنبية القديمة التي أسست في بعض المدن العربية كانت تدرس المواد العلمية باللغة العربية؛ ثم تراجعت عنها لِمَا رأته من عقوق أبنائها. ولا شيء أدل على هذا من الكلية الإنجيلية التي أسست في بيروت والتي سُميت بالجامعة الأمريكية عام (١٨٦٦م)، وكانت العربية فيها لغة تدريس المواد العلمية، وكان هناك أساتذة أمريكيون يشاركون غيرهم في التدريس بها، إلى أن استبعدت عام (١٨٨٤م) لتحلّ محلها اللغة الإنكليزية.

ولعل من أعظم الأمور الغريبة التي نُعانيها ـ اليوم ـ أن كثيراً من الجامعات العربية تدرس تلك المواد باللغة الإنكليزية أو غيرها، وهناك جامعات كانت تدرسها باللغة العربية ثم تراجعت عن ذلك تحت وطأة العولمة الجديدة.

لقد تجاهل أصحاب القرار العربي أن هذه اللغة كانت على الدوام قادرة على تجاوز أي مأزق لغوي معرفي علمي تتعرّض له وكأنهم نسوا قول الرسول الكريم ρ أو تجاهلوه: [كونوا للعلم رعاة ولا تكونوا لـه رواة][1] ، على الرغم من أن اللغة العربية نجحت في الامتحان الصعب الذي تعرضت له في القرنين التاسع عشر والعشرين يوم كان العرب يئنون من ظلم الانتداب الأوربي. فقد أحدث ـ آنذاك ـ في دمشق معهدان للطب والحقوق سنة (١٩١٩م) واعتمدت العربية لغة للتدريس، واستطاعت بجهود أبنائها المؤمنين بقدرتها، والمعبرين بها عن هويتهم أن يجعلوها وسيلة لتدريس الطب

---

(1) الجامع الصغير ٦٤٣٤.

والحقوق، ولم ينعتوها بأنها لغة عاجزة أو صعبة بل أكدوا أنها تستوعب كل ما نُقل إليها من مصطلحات وعلوم وأشكال فكرية وفلسفية، وأثبتوا أن بإمكانها الصمود في وجه الأقوياء الذين يريدون السيطرة على الضعفاء... فاللغة العربية منذ إنشاء معهدي الطب والحقوق في عام (١٩١٩م) عبَّرت عن وجود حضاري يصوغ العلوم والأفكار وفق أنموذج رشيد، فهل يفعل أصحاب القرار العربي اليوم مثل ذلك وهم يعيشون في كل سنة الأسبوع العالمي (٢٢-٢٨/٢) للغة الأمم؟.

وبناء على ما تقدم نرى أن من أهم أسباب تقدمها وارتقائها أن تظل عيون أبنائها حارسة لها، وعقولهم قادرة على تطويرها، فلا يمكن لها بمفردها مهما امتلكت من عناصر البقاء والصمود أن تكون قادرة على مواجهة التحديات التي تعترضها وستتغلب عليها أي لغة أخرى تتطور بفعل النتاج المعرفي والتقني والصناعي والعلمي الذي تعززه مسيرة التغيُّر كل يوم لتصبح لغة الناس كافة، وبخاصة أن المجتمعات اليوم تعيش حالة كبرى من التحولات على كل صعيد وفي كل مجال... فإذا كانت اللغة أداة انتماء ووسيلة اتصال بالتراث الضارب بالجذور فهي ـ كذلك ـ أداة تمدّن وتحضّر ووعاء استيعاب لكل ما يستجد من معارف وعلوم وآداب وفنون وتقنيات ومصطلحات[1] و.... فاللغة العربية – وللأسف – بدأت تنزوي في مجالات كثيرة، وتضعف قدرتها المعنوية، كما هو عليه الحال في ميادين الاتصالات والإعلام والتقنيات الحديثة و.. نتيجة عدم مشاركة أبنائها في دورة الإنتاج العالمية، بعكس ما كانوا عليه من قبل؛ عندما مثّلت خصائص روحهم وتفاعلهم مع كل جديد، فهي إرث متصل من الشفافية في الاتصال الاجتماعي؛ وكنز ثر من الدلائل المعرفية والفنية والاصطلاحية، ما يجعلها تتميز بجملة الظواهر الأصيلة التي ثبتت بين ظهراني الأمة حتى الساعة؛ وسنقطف شيئاً منها:

---

(1) انظر الفصل الثالث من هذا الكتاب ص ١١١ وما بعدها.

القسم الرابع: الخصائص الأصيلة المشتركة:

ليس جديداً أن نقول: إن اللغة العربية تتفرد بخصائص لا نظير لها... إنها لغة متفردة لتفرد روح أهلها، فمن من اللغات تملك ما تملكه من مجلدات كتبت عن المثل كما هو عليه الحال في (أمثال العرب للضبي ومجمع الأمثال للميداني، والمستقصى في أمثال العرب للزمخشري وجمهرة الأمثال لأبي هلال العسكري)؟!.

والأمثال تدل على خبرة الشعوب وحياتها وارتقائها الاجتماعي والفكري والإنساني الذي يتميز بالدقة والإيجاز والتصوير والرمز والقصة والصفاء و... مثل (لأمر ما جدَع قصير أنفه) و (على نفسها جنت براقش) و (من يمدح العروس إلا أهلها) و (مواعيد عرقوب) و(أنجز حر ما وعد) و (المنية ولا الدنية) و(يداك أوكتا وفوك نفخ) و(أبصر من زرقاء اليمامة) و (إياك أعني فاسمعي ياجارة) و(انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً) و (كل إناء بما فيه ينضح) و(كل فتاة بأبيها معجبة)..

فإذا كان لكل أمة أمثالها فإن الأمثال العربية تميز الذات العربية من غيرها؛ سواء تلك التي وردت في الشعر والنثر أم الأمثال التي أطلقها الناس وسارت على الألسنة حتى اليوم كما كانت عليه منذ وجدت، وكثير منها ذو جذور كنعانية وآرامية وسريانية وحميرية ويمانية وتدمرية كما أشرنا إلى واحد منها قبل قليل؛ إذ يعود إلى عهد الملكة زنوبيا[١].. والمثل يضرب لقرينة ما تحصل في كل زمان ومكان، مشابهة مع المعنى الأول الذي وضع له وفق خصائصه المعروفة (إيجاز اللفظ وإصابة المعنى وحسن التشبيه وجودة الكناية)... وإذا كان المثل في (بابل) وسيلة تعليمية وتربوية وخلقية ومادة للتصوير لوظيفة ما [٢] فإنه ظل كذلك منذ العصر الجاهلي

---

[١] انظر مجمع الأمثال ١٣٧/٢ ــ ١٣٨.

[٢] انظر الأمثال في النثر العربي القديم ١٨ ــ ٢٠.

حتى اليوم، علماً أنه ظل يحمل الصبغة الشعبية النابعة من البيئة العربية، ومن ثم دخل في إبداع المبدعين كما نجده في حكاية (الحية الصفراء والرجل الطماع) في قصيدة النابغة الذبياني؛ ومنها:[1]

وإني لألقى من ذوي الضغن منهم

وما أصبحت تشكو من الوجد ساهره

كما لقيت ذات الصفا من حليفها

وما انفكت الأمثال في الناس سائره

وإذا كانت أسواق العرب مكاناً خصباً لتبادل الأمثال منذ القديم فإن الندوات والمؤتمرات تشبه اليوم ما كانت عليه الأسواق؛ إذ ينتقل بوساطتها المثل من لسان إلى لسان، ومن مكان إلى مكان.

وكذا يقال في الوصايا والحكم والمواعظ التي انتظمت حياة الأمة وأدبها نثراً وشعراً... ويكفي لأي منا أن يراجع كتاب (الأمثال والحكم ـ للماوردي ـ ت: ٤٥٠ هـ) و (جمهرة رسائل العرب) أو (جمهرة خطب العرب) لأحمد زكي صفوت ليدرك ذلك... فالحكمة، والوصية تمثل خبرة الحياة لمن يسوقها ويقدمها لغيره بلغة موجزة ذات دلائل كبرى في التربية، وتهذيب الخلق... وهي لا تزال تمثل هذا الجانب حتى يومنا هذا، وقد ساعدها على ذلك كثرة الحكم والوصايا التي وردت في القرآن الكريم والحديث الشريف؛ وهي الجامع الثقافي الخلقي لأبناء العربية، وقد قال الرسول الكريم *: "

---

[1] ديوان النابغة ١٥٤ ومجمع الأمثال ٢/١٤٥-١٤٦.

مداراة الناس صدقة" وقال: " لايؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه" وقوله: " ارحم من في الأرض يرحمك من في السماء" و " خير الناس أنفعهم للناس"[١].

ومن الحكم التي سارت مسار المثل قول أحد الحكماء: " مَنْ كثر مزاحه زالت هيبته" و " من دام كسله خاب أمله" و " من اكتفى باليسير استغنى عن الكثير"[٢].

وهناك حِكَم أطلقها الشعراء فسارت مسار المثل يتداولها الناس في كل زمان ومكان كقول امرئ القيس:[٣]

إذا المرء لم يخزن عليه لسانه … فليس على شيء سواه بخزان

وكقول طرفة:[٤]

ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلاً … ويأتيك بالأخبار من لم تزود

وكقول عمرو بن معد يكرب:[5]

إذا لم تستطع شيئاً فدعه … وجاوزه إلى ما تستطيع

وهذا كثير يميز اللغة العربية ثقافة وحياة وخصائص تعبر عن روح أهلها؛ من ولد عاد وجرهم و... إلى قحطان وعدنان، إلى الجاهلية والإسلام حتى اليوم[٦] وهو ما لا يمكن أن يكون له مثيل عند الأمم الأخرى... وكذلك هما ظاهرتا الاشتراك والترادف[7] اللتان تميزها، وتعبر عن اجتماع القبائل العربية في دائرة لغوية واحدة، علماً أن بنية اللفظ

---

(١) انظر الجامع الصغير على الترتيب ٤٦١/٢، و ٦٤٩ و ١٢٣/١ و ٥٤٨.

(٢) الأمثال والحكم للماوردي ٣٩ و ١٠٥ ـ ١٠٦.

(٣) ديوان امرئ القيس ٩٠.

(٤) ديوان طرفة بن العبد ٤٨.

(5) شعر عمرو بن معد يكرب ١٤٥.

(٦) انظر دراسات في العربية وتاريخها ١٢٠ ـ ١٢٧.

(7) انظر الفصل الثالث ـ ص ١٦٤ ـ ١٦٥ في المفردات التي أطلقت على (اللسان).

ثابتة، وإن تغيرت طبيعة الصوت واختلفت الدلالة أحياناً،[١] وهو ما استمر في اللهجات العامية حتى الساعة. فالاشتراك أو الترادف أو التضاد يؤكد أصالة النفسية العربية الممتدة ثقافة وعادات وتقاليد توارثها الخلف عن السلف، وإن اختلفت بعض أجزاء دلالية فيها[٢]... ولا شيء أدل على هذا كله من الألفاظ التي تدل على ذلك في المعجمات العربية؛ علماً أن قسماً منها يرتبط ببعض القصص المثيرة عند العرب كما هو لفظ (ثِبْ)... وحكايته مرتبطة بالمثل الشهير "مَنْ دَخَل ظفار حَمّر" [٣] أي تحدث بلغة (حِمْير)، أي لهجتها. وصار هذا المثل يضرب للرجل الذي يدخل في قوم من الأقوام وعليه أن يأخذ بما يؤمنون به ويفعلونه.

ولعل الباحث الحصيف يمد نظره إلى إدراك أن هذه العبارات ظلت سائدة ومستعملة في العربية على ألسنة العامة والخاصة وهي التي شكلت وعياً وجدانياً جمعياً حتى الساعة، بمثل ما قامت به الأمثال والوصايا والحكم...

ومن يتعرض للاشتراك أو الترادف لا يمكنه أن يتغافل عن بعض الألفاظ التي تتصل ببلاد النيل منذ الفراعنة... ولا شيء أدل عليها من لفظ (الحابي)، وهو لفظ يطلق على نهر (النيل)[4]. والحابي في اللغة العربية (المشرف الجنبين) و (النبات المرتفع) و (المعطاء) من دون حساب... وكل هذه المعاني مما يدل عليه نهر النيل في تسميته (الحابي)، ما يشي بأن هناك اشتراكاً في جملة من المفردات ومعانيها بين العرب القدماء في الجزيرة العربية وبين سكان وادي النيل، مما يعني أن هناك خصائص مشتركة بينهم منذ القديم وظلت مستمرة بعد الإسلام، اللهم إذا تجاوزنا ظاهرة تقديم الفعل على الفاعل، والأصل على الفضلة كما عرفتها اللغة الأكادية، وهي ظاهرة

---

[١] انظر في اللهجات العربية ١٨ ـ ٢١ و ٢٥ ـ ٢٨ و ١٦٤ ـ ١٦٧.

[٢] انظر المرجع السابق ١٧٤ ـ ٢٠٤.

[٣] مجمع الأمثال ٣٠٦/٢ وراجع ما تقدم ٢٧ ـ ٢٨.

[4] انظر لسان العرب (نيل ـ حبا).

معروفة في العربية[١]. ومن يراجع ألفاظ المعجم العربي يلمس كثيراً من الألفاظ الممتدة إلى الآرامية والسريانية مثل (الحانوت والصرصور والشتلة والزبون والمرجل والمزراب والدُّمية والسلة والحرباء والبان والأبيل والديباج وآب وآجر وآذار والإبّار والأبُّ والإبريق والأبنوس والأتون والإجاص...) وغير ذلك كثير وقفت عنده الباحثة جهينة علي في كتابها (المعرب والدخيل في المعاجم العربية)[2].

ومن هنا فإن اللغة العربية ورثت كثيراً من الألفاظ نطقاً ودلالة من اللغات القديمة (الآرامية والسريانية و...) بل إن الدكتور بهجت القيسي يذهب إلى أن الآرامية صنو العربية، وأن الآراميين سموا أنفسهم عرباً، وهناك مدينة معروفة باسم (عربايا)[3].

أما أحمد ارحيّم هبو فإنه يرى أن النصوص الآشورية أوردت اسم (العرب) بمعنى سكان البادية، [٤]. أما سهل (العمق) ـ شمال / غرب سورية ـ فما زال اسمه هو هو منذ تسميته بهذا الاسم في الآرامية (AMQ)[4] وقد عضد ذلك كله أن الدراسات اللغوية المقارنة أثبتت وجود علاقة كبرى في المستوى الصوتي بين اللغات القديمة العديدة كالأوغارتية والأكادية والآرامية و ... وبين العربية، بل إن كلاً منها يستعمل المثنى في الأسماء استعمالاً متشابهاً، فضلاً عن أن الميم صوت لغوي يلحق الضمير في العربية (هما ـ هم، إليكما، إليكم...)، وهو كذلك في الأكادية والأوغارتية (هم، كم)[5]. ولو دخل المرء هذا المجال لضاق

---

[١] انظر الواقع اللغوي العربي القديم ١٨٧ ـ ١٩٢.

[2] انظر ما ذكرته الباحثة في (المعرب والدخيل في المعاجم العربية ٨ و١٩ ـ ٣٦).

[3 و ٤] انظر الملحق الثقافي ـ جريدة الثورة ـ مقال (حماة شاهد من زمن ما قبل الكتابة) ـ أنور بدر ـ ص ١٠ العدد ٦٠٣ ـ تاريخ (٢٠٠٨/٦/١٧م) والواقع اللغوي العربي القديم ٢ ـ ٢٥.

[4] انظر بحث (تل جنديرس في سهل العمق) ـ د. نائل حنون و د. عمار عبد الرحمن ـ مجلة دراسات تاريخية ـ جامعة دمشق ـ العددان ٩٩ ـ ١٠٠ ـ ٢٠٠٧م ـ ص ٥ وما بعدها.

[5] انظر من أسرار العربية ٢٥٤ والمدخل إلى اللغة السريانية وآدابها ـ ١١٠

به الحديث، والكتاب، ويكفي أن نشير إلى أن الإرث المتصل باللغة العربية يمتد إلى كثير من النصوص في اللغات القديمة[1]. ومن ثم كانت ألفاظ أخرى تكتسب معاني جديدة على الدوام، وترود آفاقاً بعيدة منذ الجاهلية وصدر الإسلام حتى نهاية العصر العباسي، وهو ما رآه اللغويون القدماء وتحدثوا عنه كما شهدناه في بلاغة الآراء والأفكار التي ترددت أصداؤها على لسان ابن عباس (ت: ٦٨٧م) في ضوء سؤالات (نافع بن الأزرق) له، أو كما رأيناه في (المزهر في علوم اللغة) للسيوطي (٩١١/ هـ – ١٥٠٥م) وما انتهى إليه من طرح مسألة تعدد المعاني اللغوية...

ولعل المرء يقف مشدوهاً في هذا الاتجاه حينما يذكر كتاب (العين للفراهيدي ت: ١٧٤هـ) و (تهذيب اللغة للأزهري) أو (جمهرة اللغة لابن دريد) أو (المخصص لابن سيده) أو (فقه اللغة للثعالبي)...

فهذه أمثلة تؤكد الروح العربية التي تبرز أن اللغة منهج حياة راقٍ ومتطور في تعامله مع الوسط المحيط علماً أن النص القرآني باعتباره نصّاً لغوياً ما زال يؤكد ذاته وامتداده في حياة الأمة وثقافتها منذ (١٤٢٤) سنة، وهو الذي نزل بلغة العرب الضاربة الجُذور في التاريخ، وبها أعجزهم..

ومن هنا كان لزاماً علينا أن نومئ إلى كتب السيرة والتفسير والدراسات القرآنية التي نشأت خدمة للنص القرآني وأثبتت حضور اللغة في العقيدة والحياة والأشكال الجمالية مثل (مجاز القرآن لأبي عبيدة ت: ٢١٠ هـ) و (تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة ت: ٢٧٦ هـ) و (السيرة النبوية لابن هشام ت: ٢٠٤ هـ) و (دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني ت: ٤٧١ هـ) و (الخصائص لابن جني ت: ٣٩٢هـ) و (التفسير الكبير للرازي ت: ٣١٣ هـ). ولا يسع الباحث إلا أن يتوقف عند كتاب (كشاف

والمدخل إلى اللغة الكنعانية ـ الفينيقية٢٨ والواقع اللغوي العربي القديم ٣٠ ـ ٤٦.

[1] انظر الرسائل السياسية في بلاد الشام... في عصر ماري ـ د. فيصل عبد الله ـ مجلة دراسات تاريخية ـ العددان ٩٩ ـ ١٠٠ ـ ٢٠٠٧م ـ ص ٤٨ ـ ٥٨، وانظر الواقع اللغوي العربي القديم ١٢٣ ـ ١٣٠ و ١٣٦ ـ ١٣٨.

اصطلاحات الفنون للتهانوي ت: بعد ١١٥٨ هـ) الذي أسس لفكرة المصطلح البلاغي والأدبي من وجهة النظر النقدية والثقافية، فسبق ما يقوم به المحدثون اليوم في الوقت الذي أرخ فيه لمفهوم الاصطلاحات الأدبية والفكرية والفنية وتطورها الدلالي حتى عصره...[1].

ولا يفوتنا في هذا المجال أن نشير إلى كتاب (الشفاء لابن سينا ت: ٤٢٨ هـ) و (آراء أهل المدينة الفاضلة للفارابي ت: ٣٣٩ هـ) وكل منهما يغوص في مسائل معقدة ويعبر عن روح الأمة العربية وما ترتكز عليه من ماهية مميزة لها بخلاف ما كانت عليه أمم أخرى.

أما الشعر فهو ديوان العرب، وأول من أطلق عليه هذا المصطلح أمير المؤمنين عمر τ، علماً أنه أول من دوّن الدواوين... والدواوين جمع ديوان، وهو مجتمع الصُّحُف..[٢]

وإذا كان كثير من اللغويين يرون أن الديوان لغة مولَّدة في صدر الإسلام فإني أراها ذات دلالة على مكان اجتماع القوم في حلقة يروون فيه أشعارهم ويتسامرون فيها، ما يؤكد أن الشعر العربي يمثل روح الجماعة التي أبدعته... ولاشيء أدل على هذا من تسمية الشعر التقليدي بالشعر العمودي، نسبة إلى عمود البيت، والبيت الشعري نسبة إلى بيت الشَّعر، وبيت الشَّعر ما زاد على طريقة واحدة يقع على الصغير والكبير، ويقال للخباء المصنوع من صوف أو شَعَر بيت..[٣] فالبيت " من الشِّعر مشتق من بيت الخباء، وهو يقع على الصغير والكبير، كالرجز والطويل، وذلك لأنه يضم الكلام، كما يضم البيت أهله، ولذلك سمَّوا مقطعاته أسباباً وأوتاداً على التشبيه لها بأسباب البيوت وأوتادها، والجمع أبيات" و (بيوت) " والبيت من أبيات الشِّعر سمي بيتاً لأنه كلام جمع منظوماً، فصار كبيت جُمع من شِقق وكِفاء ورواق وعُمُد" [٤].

---

[1] انظر مثلاً: كشاف اصطلاحات الفنون (٧١/١ ـ مادة الأدب).

[٢] لسان العرب ـ دون ـ لابن منظور ـ دار صادر ـ بيروت.

[٣] انظر لسان العرب ـ بيت.

[٤] لسان العرب ـ بيت.

وفي ضوء ذلك فالقصيدة الشعرية مجموعة أبيات تمثل روح الجماعة العربية الموزعة في بيوت متقاربة مصنوعة من الشَّعر أو الصوف أو غيرهما... وقد جمع كل بيت إلى أخيه ليعبر بلغة شفّافة جميلة عن روح الجماعة التي صنعته على حين ظلت الكلمة في البيت الشعري تمثل الفرد داخل الكيان الأكبر... مثل الفرد في الأسرة...

ولو دخل المرء إلى بنية الكلمة العربية صرفاً ونحواً لأدرك المزية التي صُنعت من سُلاف الحروف وفق طريقة الاشتقاق والتركيب تقديماً وتأخيراً؛ حذفاً وزيادة، حتى يتولد من الكلمة الواحدة أسرة كبيرة لا يماثلها إلا الأسرة العربية. والصرف " علم بأصول تعرف بها أحوال أبنية الكِلم التي ليست بإعراب ولا بناء" ... وهو شامل للعلوم اللغوية على نحو كبير... أما علم النحو فهو علم "يعرف به كيفية التركيب العربي صحة وسقاماً، وكيفية ما يتعلق بالألفاظ من حيث وقوعها فيه"[1].. وهو ما لم تعرفه اللغات الأخرى قاطبة[2].

فالصرف أو النحو لا يقتصر على مفهوم صورة اللفظ في البنية الظاهرة، وإنما ينتقل من المبنى إلى المعنى، وكل زيادة في المبنى تعني زيادة في المعنى؛ ومن ثم تتعدد الوظائف وتتنوع. وعليه فحين اتصفت البنية الشكلية بالنظام الثابت للمسند والمسند إليه (سعيد نجح، نجح سعيد؛ سعيد ناجح، سعيد في البيت، في البيت سعيد، أين سعيد، و...) فإن هذه البنية هي التي عصمت اللغة العربية من الانقراض أو التشويه أو.... ثم إن هذا النظام ينفتح على وظائف عدة في حال التقديم والتأخير، والإيجاز والإطناب، والحذف والزيادة والتكرار، والوصل والفصل، والإضمار والإظهار، و... علماً أن نظام التركيب النحوي يرجع إلى ثلاث صور على وجه الإجمال، وقد ذكرها عبد القاهر الجرجاني في قوله: "معلوم ان ليس النظم سوى تعليق الكِلم بعضها ببعض وجعل بعضها بسبب من بعض. والكلم ثلاث: اسم، وفعل، وحرف، وللتعليق فيما بينها طرق معلومة، وهو لا يعدو ثلاثة أقسام: تعلق اسم باسم، وتعلق اسم بفعل، وتعلق حرف بهما"[3].

---

(1) كشاف اصطلاحات الفنون ٢١/١ و ٢٤.

(2) راجع ما تقدم ص ٢٣- ٢٤.

(3) انظر دلائل الإعجاز ٤ ـ ١١ من المدخل، وانظر فيه ٥٥ ـ ٥٦ و٨١ ـ ٨٣.

ولذلك صار المبنى أصلاً للمعنى في ثباته وتحوله، وفي سكونه وحركته، وتبدل أحواله في إطار السياق المنبثق من الحراك الذاتي والمعرفي والثقافي والفني والاجتماعي... قديماً وحديثاً.

ولعل هذا الشأن ينطبق على النظام الصرفي باعتبار أوزان العربية وصيغها الثابتة والمتولدة، ما يثبت أن مفهوم التغير الدلالي في الأبنية يغدو منفتحاً على المعاني المجردة، وإن كانت الصيغة ثابتة / بنية ووزناً/ أو محدودة كما هو عليه الحال في أوزان الفعل الرباعي.، دون أن ننسى في هذا المقام ظاهرة صرفية لافتة للنظر تتجلى في الأوزان الرباعية ذات الأصل الثنائي مثل (زلزل ـ كركر ـ لملم ـ وسوس ..). وهي ظاهرة محدودة ـ دون مراء ـ ولكنها ظاهرة متأصلة في اللغة الأوغارتية خاصة وبقية اللغات السامية عامة. وهذا يعني أن الأحوال والقرائن هي التي تنتج الكلام المنفتح على الدلائل، على حين تظل البنية الصرفية أو النحوية ثابتة وفق ما انتهى إليه الجرجاني[1].

وفي صميم ذلك توصل أكثر اللغويين إلى أصل الاشتقاق لأسرة الكلمة العربية، فتوافقوا على أنها (المصدر)، ومنه تتفرع الألفاظ والدلالات كما يتفرع الأولاد والأحفاد عن أصولهم... ما يعني أن البنية الصرفية المولدة للكلمة العربية تمثل روح الأسرة العربية المولدة... ويكفي للمرء أن يسوق مثلاً واحداً ليؤكد ما يذهب إليه، ومن أراد المزيد فليرجع إلى أي معجم لغوي ليدرك ذلك. فالغُصْن ـ مثلاً ـ غُصن الشجر، أو ما تشعب عن ساق الشجرة دقاقها وغلاظها، والجمع أغْصَان وغصون وغصنة... وغَصَن الغُصْن يَغْصنه غَصْناً: قطعه وأخذه.. وغَصَّن العنقود وأغصن: كبُر حبّه... وكل هذه الدلائل وغيرها مشتقة من مصدر واحد وهو (الغَصْن) ومعناه القطع والأخذ والمَدُّ والتشعيب[٢]. .. ولعل هذا المعيار هو ما

---

[1] انظر المصدر السابق ٤ ـ ١١ من المدخل و٦٣ ـ ٦٧ و٨٧ ـ ٨٩.

[٢] انظر اللسان (غصن) ولعل هذه المادة اللغوية تتيح المجال للغويين والمبدعين كي يصوغوا الفعل من الذوات والأعيان، انظر دراسات في العربية وتاريخها ٦٨ ـ ٧١.

عرف بالاشتقاق الصغير أما الاشتقاق الكبير فهو الكلام العربي الذي يشترك في دائرة التقاليب الستة للكلمة مثل (ركب ـ ربك ـ كبر ـ كرب ـ برك ـ بكر) وهذا يماثل الأفخاذ والعشائر العربية.

ولا يمكنني في هذا المقام إلا أن أبرز ماهية روح أمتنا في الميزان الصرفي الذي وضعته لكلماتها وهو (الفاء والعين واللام: فَعَل)؛ وهو ميزان يشي بحيويتها وتطلعها إلى العمل والبناء والارتقاء والحفاظ على الحياة، بعكس الميزان الصرفي الذي تبناه اللغويون في اللغة العبرية وهو (القاف والتاء واللام: قتل)... وهو ميزان يوحي بالموت والاستئصال المْعَبّر عن الروح اليهودية خلال وجودهم التاريخي المليء بالدمار والهلاك للأرض والإنسان، وما صورة يوشع بن نون التي يتمثلون بها في التوراة ويسيرون على طريقها إلا الروح المنبثة في أجسادهم. فيوشع لديهم جبار عتيد يقضي على كل ما يصادفه في الأرض التي يصل إليها لتكون خالصة له ولأتباعه...[1]

وهذا أمر يطول شرحه، سواء ما يتعلق بالحروف تقديماً وتأخيراً، حذفاً وزيادة...، فكلها تشير إلى ظواهر لغوية مازالت ثابتة في تعبيرها عن روح هذه الأمة حتى الساعة؛ بما في ذلك حروف الجر؛ والحروف النورانية التي افتتحت بها أوائل السور القرآنية. وهو ثبات معروف على صعيد المستويين النحوي والصرفي، باعتبارهما المعيار الذي ينظم الكلام العربي... علماً أن التفكير العربي الذي تطور كثيراً عما كان عليه[2] كان يحرص على تطوير اللغة من الداخل بإكسابها دلالات جديدة ومصطلحات جديدة وفق ما تتصف به من مرونة معايير الاشتقاق والنحت والتركيب. وهذا يلزمنا بأن نتوقف عند بنية الجملة الاسمية والفعلية وفق ما اتفق عليه اللغويون والبلاغيون من ارتكازها على (المسند إليه) و

---

[1] انظر كتابنا: المقاومة قراءة في التاريخ والواقع والآفاق ـ اتحاد الكتاب العرب ـ دمشق ـ ٢٠٠٨م.

[2] انظر تاريخ اللغة العربية ـ٥ وما بعدها ـ لجرجي زيدان ـ تقديم عصام نور الدين ـ دار الحداثة ـ السلسلة التاريخية ـ بيروت ـ ط١ ـ ١٩٨٠م.

(المسند) سواء تقدم المسند إليه أم تأخر. فالمسند إليه هو الفاعل في المعنى سواء وقع فاعلاً أم مبتدأ؛ أم ما حَلّ مكانهما... ولا يزال هذا الركن ممتداً في اللغة المعاصرة عامية وفصيحة، وكذا هو المسند... فكلاهما عنصر ثابت في بنية الجملة العربية منذ تكوينها التركيبي[1]... وأما ما لحق بها من فضلة فهو المتغير، وهو الذي يدل على الحال والهيئة الإضافية... وحين يلحق التغيير أو التجديد الفضلة فإن الثابت يبقى ثابتاً ولم يستطع أحد تغييره أياً كان النمط التركيبي الذي يجري عليه الكلام.. بعكس ما هي عليه اللغات الأخرى؛ فاللغة الصينية مثلاً لغة قائمة على التصوير العقلي لكلمة متكاملة؛ أما اللغات الأوربية فهي إلصاقية، ما يجعلها تتغير بنية ودلالة في ضوء التطور الذي يجري لها، لهذا فإن لغة شكسبير مغايرة للغة البريطانيين اليوم.. بعكس ما هي لغتنا المستندة إلى ثبات الركنين (المسند والمسند إليه)... فلو نهض امرؤ القيس من قبره وقرأ عليه أحدنا قوله:[2]

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل

بسقط اللوى بين الدخول فحومَل،

لما تغيَّر عليه الحال... وهذا الثبات هو الذي يدل على خصائص الأمة العربية باعتبار اللغة جوهر نفسيتها وروح حياتها ونظامها الاجتماعي، وكأني بالمسند إليه يمثل حال سيد القبيلة؛ أو حال الأب (الأصل) في الأسرة... أي إن الجملة المركبة تستند إلى أصل وفرع مثل الأسرة العربية، أو العائلة أو العشيرة...

وهذا الأمر يفرض عليَّ ألا أتغاضى عن معاني الحروف ودلالتها وفق الظاهرة الاجتماعية والنفسية والطبيعية التي تميزت بها لغة العرب، علماً أن القدماء والمحدثين قد وضعوا الكتب المتنوعة في هذا الباب؛ فمن القدماء (الحسن بن قاسم المرادي) في (الجنى الداني في حروف المعاني)، ومن

---

(١) انظر من أسرار اللغة ــ د. إبراهيم أنيس ــ ٣٠٦ ــ ٣٠٧.

(٢) ديوان امرئ القيس ٨.

المحدثين (حسن عباس) الذي بذل جهوداً ملموسة في بيان ذلك كما في دراسته المشهورة (حروف المعاني بين الأصالة والحداثة)[1] وفيها قال: " لما كان الإنسان العربي قد تعايش مع الحرف العربي في الجزيرة العربية طوال آلاف كثيرة من الأعوام مرحلة حياة متطورة بعد مرحلة، يبدع به كلماته ويهذبها...فقد كان لا بد للحرف العربي أن يحمل مقومات شخصية الإنسان العربي حساً مرهفاً وشعوراً ونزعة أخلاقية..."[2].

وإذا كان اللغويون يسلمون بأن اللغة ـ أي لغة ـ عرضة للتغير والتطور على مستويات عدة كالمستوى الصوتي والنحوي والدلالي[3] فإن المستويات التي فرضتها اللغة العربية في المستوى الصوتي والنحوي فضلاً عن أن المستوى الصرفي ظل ملتزماً بقيود شبه صارمة منذ نشأتها[4]، ما أنتج ثوابت ممتدة في التاريخ على الرغم مما لحقها من التطور الدلالي الذي أصاب حروفاً كثيرة منها ..

وحين احتفظت بالثوابت والمتغيرات ظلت تعبر عن روح الأمةولعل الأمثلة على ذلك كثيرة في الحروف، فحروف النداء ـ مثلاً ـ ظلت ثابتة الأصوات والدلالة ـ على نحو ملموس وكبير ـ منذ صياغتها الأولى، فضلاً عن ثبات دلالتها الحقيقية في طلب الإقبال من المنادى عليه. ولذا لا يمكن للمرء وهو يلفظ النداء (أ ـ آ ـ أي ـ يا ـ أيا ـ هيا ـ وا ...) إلا أن يستشعر ثباتها الصوتي والدلالي، وإن اكتسب فيما بعد اتساعاً في المعاني المجازية...[5] ومن منا ينسى استغاثة تلك المرأة بالمعتصم (وامعتصماه)؟ إنه صوت ممتد حتى اليوم ثم

---

[1] طبع في اتحاد الكتاب العرب ـ دمشق ـ ٢٠٠٠م.

[2] المرجع السابق ١٢ ـ ١٣.

[3] انظر مثلاً في علم اللغة العام ٢٣١ ـ ٢٣٦ ـ عبد الصبور شاهين ـ بيروت ـ ط٣ ـ ١٩٨٠م واللغة بين المعيارية والوصفية ٦٤ ـ ٦٥ ـ تمام حسان ـ دار الثقافة ـ الدار البيضاء ـ ١٩٨٠م.

[4] انظر تاريخ علم اللغة منذ نشأتها حتى القرن العشرين ٧٠ ـ ٨٠.

[5] انظر كتابنا (جمالية الخبر والإنشاء ١٧٧ وما بعدها).

مَنْ منّا ينسى حرف الهاء في (ها) فهو لا يزال يستعمل للتنبيه والإشارة والنداء حتى اليوم في لغتنا، ومثله ـ على نحو ما استعمال (هنا ـ هناك)؟ والهاء حرف مستعمل في الأوغارتية والسريانية، على حين أنه غير مستعمل في العبرية.

ومن يتابع ما تبقى في لهجة أبناء محافظة اللاذقية أو بعض ألفاظ العامة في سورية ـ اليوم ـ يدرك وجود عدد من الألفاظ الأكادية أو الأوغاريتة المتداولة حتى اليوم مثل (غَلّيني) أي (البحر) و (فِهْنِهْ) أي انظر إليه، أو عيّن الشيء... وهناك عدد آخر تغيّرت أصواته على نحو ما، ونمثّل له بالجدول الآتي:[1]

الأصل الأوغاريتي	الاستعمال في لهجة اللاذقية
إتِ ـ هِنِتْ	أنت
بت ـ بتي	بنت ـ بنتي
بت الطل	بنت الطل (أو بنت الندى)
رجِل	رِجْل
شِبع	شَبع
جابهْنِهْ	جابهه
أخَذُ هْنِهْ	أخذوه
أيلي ـ إيلي	ياإلهي

أما إلحاق (النون) للدلالة على الجمع فهو مشهور في ألفاظ العامة؛ وهو استعمال ممتد إلى الأوغارتية، فلا زلنا نستعمل (وين كن) مكان (أين أنتم) وغيرها كثير لدينا، علماً أن هناك أصواتاً لم تتغير حتى اليوم لدى العامة مثل (وُلو). وهو صوت للتنبيه في الأوغارتية، وكانت تستعمل في تركيب (عيّن ولو ابن السما)، وهو الاستعمال الشائع حتى اليوم ـ أيضاً ـ في اللاذقية...

---

[1] انظر الواقع اللغوي العربي القديم ٤٦ و ١٤٢ ـ ١٤٧.

وكذلك يقال في حروف العطف (و ـ أو ـ و ـ لا ـ بل) وإن اتسعت هي الأخرى دلالة ومجازاً... بيد أن الصوت بقي كما هو منذ العصر الجاهلي حتى الساعة... فإذا كنا ندرك أن الحروف المستقلة عارية من الدلالة بذاتها ـ وإن ذهب عدد من الناس إلى إكسابها دلائل رمزية كالمتصوفة[١]، ومن بعد وضعها المحدثون رموزاً لعلامات ما ـ فإن أصواتها ما زالت ثابتة متصلة الجذور بنشأتها. لنأخذ حرف (اللام) وحكاية صوته (لِـ)، فهو مجرد عن المعنى، لكنه يصلح في بنية الكلمة والسياق أن يستعمل (للجر وللقسم وللابتداء وللتوكيد) وله أربعون معنى[٢]

ومن هنا فإن بنية العامية التركيبية لا تختلف عن بنية الفصحى، ولهذا لا يمكن الخوف منها إلا إذا جنحت إلى استعمال اللغات الغريبة. فبنية الجملة العربية تبحث عن المشترك في الحياة الإنسانية لأصحابها، ما يعني أنها لا تنفصل عن الوظيفة الاجتماعية التي ارتبطت بها، ولا تزال كذلك حتى الساعة.

وبهذا فإن اللغة العربية أكدت أنها ليست مجموعة مفردات وتراكيب وصور، وليست مجموعة معايير هامشية وحيادية بل كانت وسيلة تفكير وحياة لأصحابها تتطور بتطور حياتهم ومشاعرهم، وأفكارهم وتترك تأثيرها فيهم لتصبح منظومة شاملة واسعة ثرية تعتمد الانتقاء والاصطفاء في التفاعل مع الواقع الموضوعي ولا تنفلت من النظام النفسي الاجتماعي الذي ترمز إليه باعتبار المسند والمسند إليه أصلاً يماثل البنية الاجتماعية للأسرة والعائلة والقبيلة والعشيرة، علماً أن "طريق الحس موضع تتلاقى فيه طباع البشر ويتحاكم إليه الأسود والأحمر"[٣] كما قال ابن جني.... وحين توحَّد الحس لدى العرب فإنما كان بفضل عدة أسباب أهمها اللغة العربية.

---

[١] انظر كتاب (الفتوحات المكية لابن عربي) ١/٥٨ ـ ٩٢ وراجع ما تقدم (ص١٨ ـ١٩).

[٢] انظر الجنى الداني في حروف المعاني (٩٥ ـ ١٣٩).

[٣] الخصائص لابن جني ـ ١/٩٠.

فاللغة العربية تفاعلت مع كل جديد، ومع كل ثقافة وافدة، واستوعبتها، حتى غدت منظومة حياة ومنهج معرفة، وأسلوب تعبير جمالي... وهذا يلزمنا أن نشير إلى حال العربية اليوم في الفصل الثاني (شجون وحقوق).



شجون وحقوق

القسم الأول: الواقع اللغوي.
القسم الثاني: الحفاظ على العربية.
القسم الثالث: اللغة جوهر الوجود العربي ووحدته.

شجون وحقوق

القسم الأول: الواقع اللغوي:

تظهر التجربة الأدبية والعلمية والثقافية والتربوية أن هناك إشكاليات شتى تظهر كل يوم في مستوى الخطاب اللغوي على صُعُد كثيرة... وقد أصاب العربية من هذه الإشكاليات أكثر مما أصاب غيرها ... وحين تصدى علماء اللغة وعلماء الانثروبولوجيا لمعالجة قسم منها على الصعيدين المنطوق والمكتوب ما برحت المعوقات تزداد بين لغة وأخرى؛ وظل الوعي اللغوي للعربية يتراجع بين أبنائها، على حين أن اللغة الإنكليزية ـ خاصة ـ بدأت تحتل أماكن جديدة على حسابها في كثير من المواقع والمؤسسات الرسمية، وعلى عدد من المستويات والموضوعات، وكأن اللغة الإنكليزية أضحت أكثر أهمية من اللغة الأم... ومن يدقق في حياتنا الفكرية والثقافية واللغوية... يقرّ بكثير من الإشكاليات، والأمراض، فهناك ضعف ملموس في العربية نطقاً وكتابة، وهناك تراجع في المردود اللغوي مفردات وأساليب و... فالوضع الاجتماعي اللغوي لم يعد يلبي الأهداف الموضوعة للمجتمع اللغوي، ولاسيما حين سيطرت عليه الأنساق اللغوية والفكرية والفنية المنقولة من اللغة الإنكليزية وغيرها... فإذا كانت اللغة جزءاً من الفكر والثقافة والنظم الاجتماعية فإننا ندرك مدى الأزمة التي تعانيها لغتنا في الحياة والأدب والفن و... ولعل ما يجري بين ظهرانينا يؤكد ذلك فنحن قلَّ ما نسمع كلمة (شكراً) على حين شاعت كلمة (THANK YOU)، أو ما يقابلها بالفرنسية؛ وغابت كلمات عربية كثيرة مثل (صباح الخير)، و (كيف حالك؟) وحل مكانها ألفاظ أجنبية معروفة للقاصي والداني، بل صار أحدنا يستقبل الآخر بكلمات مثل (BY) و (OKY) و (HIE)

وحين نتجه إلى المغرب العربي فإننا سنعيش حالة الدهشة

اللغوية المفارقة لكثير مما ينتمي للعربية أداءً ودلالة، بل هناك لهجات مغربية كثيرة تتمايز بأصوات ولكنات فرنسية، أو إنكليزية لا نظير لها...

فهناك تداخل الكلام بين الفصيح والعامي والأجنبي، إذ نسمع مثلاً القول الآتي في الجزائر: (واشراك، كمن تلفو، سافا، بيا) و (واشراك) فيكون الجواب (لاباس، سافا، بيا) أو ما ماثل ذلك [1].

أما سوق العمالة ولا سيما ما يتعلق بالمربيات الأجنبيات ـ وبخاصة في الخليج ـ فقد طغت فيه خلطة عجيبة من اللغات الوافدة على العربية، في البيع والشراء، كتابة ومحادثة، حتى إذا تجوَّل المرء في أي سوق وجد نفسه كأنه في بلاد العجائب والغرائب اللغوية التي امتزجت فيها الأنكلو أوردية بعربية عجيبة، موشاة بلهجة هندية باكستانية...

أمّا من يمم وجهه إلى مصر فإنه يظن أن إجادة اللهجة المصرية سيدخله المجد التاريخي من أطرافه كلها، على اعتبار ما بنيت عليه مفرداتها وأساليبها؛ وإن احتفظت بشيء من الفصحى؛ وقليل من القبطية، على حين نسي أهلها الهيروغليفية.

ومن مَدَّ نظره إلى لبنان وشاهد بعض فضائياتها أدرك أن اللغة الفرانكفونية قتلت الآرامية والكنعانية، والفينيقية على الرغم من أن بعض اللبنانيين يفخرون بانتمائهم إلى الجنس الفينيقي... وترى اللبنانيين غارقين في لهجات متباينة بين الفرنسية، والإنكليزية البريطانية أو الأمريكية...

لذلك كله فإن هذه اللهجات أشبه بالوباء السرطاني الذي يدخل في الخطاب والاتصال ليقضي على العامية المحكية ثم لينقض على اللغة العربية الفصيحة فيجهز عليها.

وهكذا فإن من يتفكر في اللهجات العربية اليوم يستشعر مدى الاختلاف في الأداء الصوتي، وشناعة الاختلاط بغيرها من

---

[1] انظر ما يأتي ٩١ و ١٠٠ وانظر دراسات في العربية وتاريخها ١٥٩ ـ ١٦١.

اللغات الأجنبية... حتى أصبحت هذه اللغات خطراً على العامية المتوارثة، وعلى التراث الشعبي المتداول ومن ثم ستكون أكثر خطورة على اللغة العربية الفصيحة، على اعتبار أنها ستحل محلها.

وهكذا أضحت لغتنا خليطاً عجيباً من الأشكال اللغوية الغربية؛ وهي أشكال تثبت تراجع الوعي بقيمتها الاجتماعية والوطنية، والقومية.

فإذا كانت اللغة أداة تواصل وتفاعلاً اجتماعياً فقد شرعنا نضيّع لغتنا؛ وإذا كانت وسيلة ثقافية تراكمية توجه السلوك الثقافي وتنميه فإن فقدان المفردات اللغوية العربية يوماً إثر يوم سينتهي باللغة إلى إفقارها... ومن ثم العجز عن استيعاب المعاني المستجدة؛ فضلاً عن قتل تذوق جمالياتها. وهذا كله يبين أن اللغة تجسيد لما هو سائد في الحياة الاجتماعية والثقافية.

يبدو أن كل ما يحدث حولنا يجري خارج إرادتنا ووعينا فلا نحن نعرف قيمة لغتنا كما ينبغي لنا، ولا نحن نشعر الشعور الصحيح بحركة المتغيرات من حولنا، وعلى مختلف الصُّعُد...[1].

وبعدُ؛ فلو رجع كل واحد منا إلى قراءة لغوية نصية متأنية ومتواصلة؛ ومن ثم عاش اللغة ظاهرة وطنية اجتماعية وثقافية وتربوية وعليمة ودينية وإعلامية حقيقية... لا ظاهرة صرع وتهريج؛ وخداع... لاستطاع أن ينعم بالوعي اللغوي، والقدرة على متابعة كل تطور وتغيير مهما صغر أو كبر... فالنظام اللغوي ـ في أي لغة ـ ولاسيما العربية نظام على غاية من الدقة والوضوح لمن أدرك أسرار معانيه؛ وسياقاته المتعددة... وهو صعب على أولئك العاجزين الذين صمّوا آذانهم دونه، وغشوا عيونهم عن وظائفه الوطنية والقومية والدينية والفنية والأدبية و... فأي لغة إنما تمارس في أطرها المرجعية وتنمو وتتطور نتيجة الممارسة لأساليبها... فإذا

---

[1] انظر ما يأتي ١٠٨ وما بعدها.

كانت اللغة العربية جوهر الوجود العربي ووحدته، فإنه بغيرها سيفقد ملامحه؛ ومن ثم إذا كانت صلة الوصل بين العرب والمسلمين فإن هتك حرمتها سيهدم العلاقات الجوهرية بينها، كما هو حاصل هذه الأيام مع بعض الدول الإسلامية.
وهكذا فإن الحديث في هذا الاتجاه يحمل شجوناً كثيرة، إذ طفقت بعض الأصوات تنادي بدعوى الفصل بين اللغة وهوية المجتمع وانتمائه... بل ارتفعت عقيرة بعض هذه الأصوات إلى درجة نعت المتمسكين باللغة العربية وأساليبها بأنهم غير قادرين على مواكبة التطور الحديث، بحجة أن اللغة كائن اجتماعي متطور، ما يعني أنه ينبغي علينا اتخاذ لغة الحياة الجديدة وسيلة لحياتنا وثقافتنا...
وقد تناسى أمثال هؤلاء الحداثيين أن الثروة اللغوية الكبيرة للعربية؛ فضلاً عن قوانينها المرنة تشكل مادة خصبة لاستيعاب كل ما يستجد في حياتنا المعاصرة... وهي تمد الدارسين بكل ما يحتاجون إليه من معان جديدة ومن استعمالات تقنية مستجدة؛ بل إن الوعي اللغوي لقيمة العربية يفرض علينا ألا نهمل إتقان اللغات الأخرى؛ فإتقان لغة أجنبية واحدة ضرورة ثقافية وحضارية لكل عربي أياً كان مستواه الثقافي؛ ومركزه الاجتماعي...
ولعل ما ذكرناه كافٍ لإدراك الهدف الذي رغبنا فيه؛ فيكفي للعاقل العارف أن يتذوق قطرة من ماء البحر ليشعر بملوحته... فهل نعي ذلك، ونعمل على حلّ مشكلاتنا اللغوية؟!!.
ومن ثم سنركز الحديث في الحفاظ على اللغة العربية.

القسم الثاني: الحفاظ على العربية:

لعل الباحث في حال العربية اليوم يجعله يثبت ما قاله الدكتور كمال بشر فيها وفي أهلها: "إن جمود اللغة وتخلفها ونموّها وازدهارها كل أولئك يرجع أولاً وآخراً إلى وضع أهليها، وإلى نصيبهم من التعامل والتفاعل مع الحياة، وما يجري في العالم من أفكار وثقافات ومعارف جديدة ومتنامية. فإن كان لهم من ذلك كله حظ موفور [تجسد أثره في] اللغة، وإن قلَّ

هذا النصيب أو انعدم بقيت اللغة على حالها دون حراك أو تقدم؛ اللغة لا تحيا ولا تموت بنفسها، وإنما يلحقها هذا الوجه أو ذاك بحسب الظروف والملابسات التي تحيط بها؛ فإن كانت الظروف فاعلة غنية بالنشاط العلمي والثقافي والفكري كان للغة استجابتُها الفورية، وردُّ فعلها القوي تعبيراً عن هذه الظروف وأمارةً على ما يموج به المجتمع من ألوان النشاط الإنساني؛ وإن حُرمت اللغة من هذا التفاعل ظلّت على حالها، وقدَّمت للجاهلين فرصة وصمها بالتخلّف والجمود، في حين أن قومها هم الجامدون المتخلفون"[١].

فاللغة العربية تواجه ـ قبل غيرها ـ صعوبات جمّة في عالم اليوم؛ وتحديات كبرى من بعض اللغات الزاحفة عليها يمكن أن تقع في جملة الأمراض التي تتعرض لها اللغة العربية. ما يفرض علينا ألا نركن إلى ما أثبتناه من امتدادها التاريخي في ألفاظنا وتعابيرنا، وينبغي ألا نرتاح إلى المقولات الشائعة بأن القرآن الكريم قد حفظ اللغة العربية؛ فالتحديات الماثلة أمامنا تتجاوز إيماننا بأنها لغة القرآن لقوله تعالى:
[وإنه لتنزيل رب العالمين ـ نزل به الروح الأمين ـ على قلبك لتكون من المنذرين ـ بلسان عربي مبين](سورة الشعراء: ١٩٢-١٩٩)؛ أو تتجاوز اعتقادنا بأن الله قد تكفَّل بحفظها لأنه حفظ القرآن لقوله تعالى: [إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون](سورة الحجر: ٩)[٢]. وكذلك هي تحديات تخترق مفهومنا لحب اللغة وفق ما أسسه الحديث الشريف الذي أمر الناس بحبّ العرب لثلاث: [أحبُّوا العرب لثلاث: لأني عربي، والقرآن عربي، وكلام أهل الجنة عربي][٣].

---

[١] انظر اللغة العربية بين الوهم وسوء الفهم ـ كمال بشر ـ ط دار غريب ـ القاهرة ـ ١٩٩٩م ـ ص٥٤ وانظر دراسات في العربية وتاريخها ١٥٣ ـ ١٥٨..

[٢] انظر دراسات في العربية وتاريخها ١٤ و ١٧.

[٣] رواه الحاكم في المستدرك ـ ط دار المعرفة ـ بيروت ـ د/تا ـ ٨٧/٤ والجامع الصغير ٣٢/١.

وأياً ما يكن ضعف هذا الحديث أو صحته في الإسناد، فالرسول الكريم كان بليغاً فصيحاً، لم يعرف اللحن، وطالما افتخر بفصاحته كقوله: "أنا أعرب العرب، ولدت في بني سعد، فأنَّى يأتيني اللحن"[1]. لهذا كان يكره اللحن في اللغة ويراه ضلالاً وانحرافاً، فيأمر المسلمين بإرشاد كل من يقع في اللحن، إذ قال لهم حين سمع أحداً يلحن في كلامه: "أرشدوا أخاكم فقد ضَلَّ"[2]. فهذا الحديث يثبت بما لايقبل الشك أن اللغة العربية ـ كغيرها ـ عرضة للاختلاط والتشويه، والتآكل إن لم يحرص أبناؤها عليها، ويتعاورون على تصحيح الأغلاط التي تنتابها نتيجة الأسباب الموضوعية التي تجري بين ظهرانيهم، وفي طليعتها ظاهرة المثاقفة اللغوية والأدبية والنقدية والعلمية والاصطلاحية...

وقد أدرك الصحابة الأخيار قيمة الحفاظ على اللغة والعمل على إتقانها والحرص عليها؛ لأنها عماد التفقه في القرآن والحياة لقول أمير المؤمنين عمر τ: "عليكم بالتفقه في الدين، والتفهم في العربية، وحسن العبارة"[3].

نحن لا نريد أن نعيد ما قاله الآخرون عن اللغة ـ على الأقل ـ منذ حافظ إبراهيم الذي تغنى بعظمة العربية ودافع عنها بلسانها كما في قوله[4]:

وسعت كتاب الله لفظاً وغاية   وما ضقت عن آي به وعظات

---

[1] المعجم الكبير ـ الطبراني ـ عن أبي سعيد الخدري ـ الحديث رقم (٥٤٣٧) ـ ٦/ ٣٥ وانظر الجامع الصغير ٣٦٣/١ الحديث رقم (٢٦٩٦).

[2] الخصائص لابن جني ـ تحقيق محمد علي النجار ـ ط ـ دار الكتاب العربي ـ بيروت ـ د/ تا ـ ٣/ ٢٤٦.

[3] فضائل القرآن ـ لابن سلام ـ تحقيق أحمد بن عبد الواحد الخياط ـ ط المغرب ـ ١٩٩٥م ـ ٢/ ١٧٩.

[4] ديوان حافظ إبراهيم ٢٥٣/١ وانظر كتابنا (نصوص من الأدب العربي المعاصر ٦٥).

فكيف أضيق اليوم عن وصف آلةٍ وتنسيق أسماء لمخترعات؟!

فأمثال حافظ إبراهيم يؤمنون إيماناً جازماً بأن اللغة العربية قادرة على الاستجابة لكل حديث، واستيعاب كل جديد لما تملكه من قوانين مرنة ومتطورة في ذاتها مثل قانون الاشتقاق الكبير والصغير، والنحت، والتركيب، والاقتراض والترجمة وغيرها... ولكننا نريد أن نقول: إن أي لغة في الكون إنما تنشأ في وسط إدراكي يتفاعل مع البيئة أياً كان نوعها وجنسها وطبيعتها، ثم تنمو وتتطور ـ وفق ما انتهينا إليه قبل قليل ـ ما يعني أنها تمرض بمرض أهلها، وتنعزل بانعزالهم، وتضعف بضعفهم وهذا ما تنبه عليه حافظ إبراهيم فقال في القصيدة السابقة:

فلا تكلوني للزمان فإنني أخاف عليكم أن تحين وفاتي

أرى لرجال الغرب عِزّاً ومنعة وكم عَزَّ أقوام بعزّ لغات

وقد أكدت اللغة العربية أنها قادرة على التجاوب مع كل جديد حين كان أبناؤها قادرين على ذلك، يوم أدركوا بنيتها طبيعة ووظيفة، في الشكل والمضمون، مستفيدين من خصائص حروفها وتراكيبها الجمالية... ففي العصر العباسي ـ مثلاً ـ أثبتت حيويتها في معالجة أي موضوع طرقوه؛ وقد امتلكت كل العناصر لمواكبة علوم عصرهم؛ إذ نجح أبناؤها في تنمية تلك البنية وتطويرها وفق قوانينها الخاصة. وإذا كانت اللغة العربية قد انحسرت يوماً ما عن بعض مواقعها بقرار رسمي في (تركيا) وبتأثير الوجود السوفييتي ـ أيام الاتحاد السوفييتي ـ في (أوزبكستان وكازاخستان والقوقاز و...) فاللغة العربية ماتت في صقلّية، وإسبانيا، نتيجة غياب أهلها، وإحلال لغة أخرى مكانها، وهي أيضاً تتراجع على ألسنة المهاجرين الذين ينتقلون إلى بلاد أجنبية، لأنهم أحلُّوا مكانها لغة تلك البلاد، أما أبناؤهم فقد نسوها ـ على الأغلب ـ. وهذا يعني أن اللغة العربية ـ مثلها مثل غيرها ـ تموت وتتخلف وتعجز إذا كان أبناؤها غير مدركين لقيمتها ومكانتها

في الحياة والأدب والفن و. ـ ومن ثم فإن التخلف والجهل وتقصير أبنائها عن سدّ الفراغ الملائم كان من أسباب تراجعها ثم اندثارها في عدد من المواطن التي وصلت إليها ...

فاللغة العربية تماشي التطور الاجتماعي والذهني والنفسي والمعرفي والتقني وتركب الزمان والمكان والموضوع عن جدارة إذا كان أهلها يلزّون في قرَن مع غيرهم؛ وإلا فإن ما تؤول إليه من التخلف والعجز والتحدي، والتأرجح بين النعوت الجارحة، والطمس المقصود لخصائصها مادياً ومعنوياً سوف يقطع وشائج القربى بينها وبين تراثها، ثم بينها وبين حاضرها ومستقبلها، ويحدث لها ما حدث في عدد من البلدان التي أشرنا إليها، علماً أن بعض البلدان الإسلامية ظلت وفية لها باعتبارها وعاء العقيدة والتراث كما هو عليه حال إيران..فتركيا ـ مثلاً ـ حين تخلت عن اللغة العربية وأحَّلت مكانها الحرف اللاتيني واللغة التركية قطعت الجسور التي كانت تربطها باللغة العربية من جهة، وبالتراث المكتوب بالعربية من جهة أخرى... ومن ثم ماتت اللغة العربية في الديار التركية، اللهم إذا استثنينا من تمسك بها لهدف ديني...

وهو السبب نفسه الذي جعلها صامدة على شفاه عدد غير قليل من أبناء الدول ذات التراث العربي الإسلامي كما هو عليه الحال في بعض أنحاء من العالم كالهند وإيران. فأبناؤها – أو قسم منهم – أخذوا زمام المبادرة لإعادة الحياة إليها في تلك البلاد لتصبح قرينة للغة الرسمية... فهي تعود بقوة إلى أماكن انتشارها السابقة بفضل وعيهم لقيمة العربية وقدرتها على الحياة وارتباطها بالإسلام، ما يفرض علينا نحن العرب أن نقوم بواجبنا تجاه هذه اللغة الأصيلة، فاللغة لا تنهض وتتطور إلا بنهوض أهلها وقدرتهم على تطويرها.

ولا أشير إلى شيء جديد حين أتحدث عن تجربة الاستعمار الأوربي في بلاد المغرب العربي، إذ جهد في إحلال لغته مكان العربية، وحاول انتزاعها من ألسنة الناس، لكنهم تمسكوا بها وجعلوها لغة الثقافة والعلم؛ وأبوا التخلي عنها، على وجود بعض الدعوات المنحرفة في أماكن هنا وهناك... وقد أشار مالك بن نبي إلى الجهود الجبارة التي

تبناها عدد غير قليل من العلماء للحفاظ على اللغة العربية[١].

وهذا يفرض علينا إحداث قواعد معرفية ومعلوماتية وتقنية بالحياة وبالعربية على السواء، لكي نواكب التطور المعرفي والتقني و... وعلى المؤسسات اللغوية والأدبية والإبداعية تطوير بنية اللغة ووظائفها باستغلال الطاقات البنيوية للغة العربية لإثراء مفرداتها وأساليبها ودلالاتها.

فهي ـ كغيرها ـ تتخلف بتخلف أهلها وتضعف بضعفهم، وتتقدم بتقدمهم، ومهما كانت قادرة على البقاء والخلود، فبقاؤها سيظل في الحيز الذي تمارس فيه إن لم يستطع أبناؤها أن يجعلوها لغة الحياة والمعرفة والعلم والتقنية و...ولهذا قال (مونتيل Monteil): "في اللغة العربية تجد المعاجم التقليدية مليئة بالكلمات المهجورة؛ وخالية من الكلملت المستخدمة. البلاغة حاضرة لكن المصطلحات القانونية أو العلمية ليست موجودة؛ و(٩٤٠٠٠) الأربع والتسعون ألف كلمة في لسان العرب من القرن الرابع عشر في عشرين جزءاً يجب ألا يشكّل وهماً في هذا المضمار"[٢].

وعلى الرغم من خطورة كلام (مونتيل) فإن ما قامت به سورية في مجال تعريب التعليم، وما قام به مركز التعريب في الرباط يرد عليه، فقد استطاعت سورية تدريس الطب والحقوق باللغة العربية منذ إنشاء معهديهما سنة (١٩١٩م).

وبناء على ما تقدم نتساءل:

هل امتد التلوّث إلى اللغة العربية، ولاسيما حين ينعتها كثير من الناس بأنها عاجزة عن تلبية متطلبات الحياة العصرية الجديدة، وقيمها العلمية والمعرفية والتقنية؟.

وهذا يعني أن الحديث لم يعد مقتصراً على تخلّف أنماط المعارف والعلوم المتنوعة وإنما امتد إلى اللغة العربية بكل

---

(١) انظر: (شروط النهضة) ـ دار الفكر المعاصر/ لبنان، ودار الفكر ـ دمشق ـ ١٩٩٣م ـ ص١١٤.

(٢) مونتيل: اللغة العربية الحديثة، كلينسيك، باريس ـ ص ١٩٦.

مقوماتها، لا على اعتبار أنها لغة مجرّدة، أو على اعتبار تاريخها العريق، بل على اعتبار أن التطاول عليها أخذ يهدد وجودها الحضاري، إذ يرى أصحاب هذا الفعل أنها لا تستطيع أن تصوغ حياة أبنائها، ولا أن تكون مادة للإبداع ولم ينسوا نقيصة إلا وصموها بها.

للرد على ذلك كلّه نرى أن اللغة العربية تتفرد بتاريخها المتجذر في الزمان، وعراقتها الراقية الملبية لوظائف شتى، والحاملة لقداسة الظاهرة الدينية، والمعبرة عن هوية أهلها، والمؤكدة لذاتها بالانفتاح على اللغات الأخرى؛ تُعير وتستعير؛ وتحقق الانسجام والتعاون داخلياً وخارجياً، في الوقت الذي تحقق عملية التوازن بينها وبين المعرفة، وتشد أبناء العربية إلى وحدة شعورية وفكرية وعلمية متقدمة، و.... وفي ضوء ذلك نقول: إن هذه اللغة التي هيأت لأبنائها كل هذا التميز هي أقدر من غيرها على إثبات ذاتها وتجسيد التربية المبدعة التي ترتقي بأبنائها، وتستجلب العلوم والمعارف إلى أرضها لتستوطن بها وتعمقها، لتصبح في نهاية المطاف حارسة لأبنائها، ومطورة لهم، كيفما تقلّب الزمان بهم، ورماهم تحت أقدام الغزاة الطامعين. فهي في أولى خصائصها تمثل روح الهوية والثقافة العربية، وهي في جوهر طبيعتها ووظائفها تربي الذوق الإبداعي، وتطلق الذهن من عقاله ليمارس عملية التفكير الخَلاّق؛ وتطلق مفاهيم الإشراق والابتكار من تحت رماد الزمن، ومن ثم تنفتح على الآخر لتثبت أن جوهر الإبداع فيها إمكانية جينية وتربوية وثقافية وفنية في آن معاً. ولن يستطيع الغافلون والجاهلون أو الحاقدون وأعداء العربية أن يزينوا مكائدهم البرّاقة والخادعة في جعل اللغة العربية لغة ضعيفة، متخلفة، عاجزة؛ صعبة، مهما تجنَّوا عليها ووصفوها بأنها تعيش خارج متطلبات العصر الحديث.

ولا أريد أن أقول: إن من واجب أبنائها الشرفاء أن يتمسكوا بها لأنها تمثل إرثهم النفيس وتشكل أصالتهم الممتدة في الزمان، أو لأنها تعبّر عن هويتهم وتطلعاتهم ضد كل دعوات التشويه والتغريب، ولكنني أريد أن أقول: إنها لغة قادرة في كل زمان ومكان على استيعاب العلوم والمعارف

ولديها من مرونة الانفتاح على حضارات العالم وثقافته وفلسفته ما لا تملكه أيُّ لغة أخرى. وهي تساير عملية الارتقاء العالمي بمثل ما تساير عملية التربية الإبداعية في نفوس كل من يقبل عليها بمحبة وشغف ورغبة صادقة. فاللغة ـ أي لغة ـ تتطور بتطور أهلها، وتنحدر بانحدارهم، وفق ما يدل عليه تطور لغات أخرى تعدُّ أقل منها حيوية وقدرة على تمثل متطلبات المعاصرة، كاللغة اليابانية والصينية، والكورية والعبرية و...

فمَنْ يتعقب مسيرة هذه اللغات يُدرك أنها كانت ترتقي بأساليب ومفردات وتتطور بتطور أبنائها وتقدمهم مادياً ومعرفياً وعلمياً فيقيمون لها ورشات العمل ويطلبون دراسة عوامل تخلفها، تجريباً وتنظيراً، تحليلاً وموازنة مع كل جديد، على حين كانت اللغة العربية تتردّى في الاستعمال على الرغم من أنها تملك من عناصر الارتقاء والانفتاح على الآخر ما لا تملكه لغة أخرى. فهي لغة حيوية، قوية، جميلة، ثريّة، متنوعة الأساليب، مطواعة للتصريف، وفق قوانين التوليد والنحت والاشتقاق والتعريب والترجمة و... ولهذا فهي تحتاج إلى أهلها لكي يرفعوا درجة العناية بها لإعادة الاعتبار إليها في مراكز البحث العلمي والمعرفي والاستراتيجي، وعليهم التفكير الجدي والصادق في جعلها لغة التدريس في المواد العلمية في المؤسسات التربوية والثقافية والجامعية، والاجتهاد في إبرازها لغة ميسرة على الناشئة دون الإخلال بالضوابط اللازمة، على الصعيد الفردي والجماعي، ما يتطلب من الجميع مدارستها، وإقامة الأسابيع العديدة كل سنة للقراءة، وتنمية قدرات المعلمين في إقامة دورات تدريبية، والعناية التكاملية باللغة العربية من الأسرة إلى المجتمع إلى الإعلام، وإلى المؤسسات الأخرى، وأن تلتزم بالحديث والكتابة في كل شأن من شؤون المجتمع والدولة، أي أن تصبح اللغة لغة الحياة والثقافة والعلم والتعليم والإعلام و...، دون أن ننسى تنمية العلاقة بين التعليم التقليدي والتقني، لما للأدوات التقنية الحديثة من آثار عظيمة في إيصال اللغة السليمة إلى أبنائها، لأن لغتنا تجسد شرفنا، وإذا أصيبت ببعض الهنات فليس

العيب ناتجاً عنها وإنما يكمن في أبنائها، لهذا قال محمد الخضر حسين:[1]

لغةٌ أُودع في أصدافها — مِنْ قوانين الهدى أبهى دُرَرْ

لغةٌ نهصر من أغصانها — زهْرَ آدابٍ وأخلاقٍ غُرَرْ

ضاق طوقُ الحصر عن بسطتها — ولآلي البحر ليست تنحصر

يا لقومي لوفاءٍ إن مَنْ — نكث العهد أتى إحدى الكُبَرْ

فأقيموا الوجه في إحيائها — وتلافوا عِقْد ما كان انتثر

فالتفاعل الحضاري الذي تؤديه لغة ما إنما ينتج من التأثير القوي لأبنائها في مختلف وجوه النشاط الإنساني. وهو تفاعل يحدث تقارباً وتكاملاً بين اللغة والمدنية والفكر أياً كان التفجر العلمي والمعرفي والتقني والفني والاقتصادي الذي يحصل في العالم من حولنا. فإذا كنا ـ اليوم ـ بحاجة إلى نتاج الآخر فإن استمرارية البقاء ثم النهوض يفرضان التمسك بالجوهر الروحي المعبر عن المنهج الذهني، والهوية الجامعة للأمة، وهو يتمثل باللغة العربية.

ويظل الاستعمال الفاعل لها على كل مستوى ومجال أساس التطور والارتقاء بها، فتطوير اللغة لا يتحقق بالدعوات الخيرة، وعقد المؤتمرات الملأى بالنصائح؛ وإنما يتحقق بالممارسة السليمة والدقيقة في مختلف المجالات؛ فهناك مشكلة حقيقية بين اللغة المنطوقة واللغة المكتوبة؛ وهناك مشكلة كبرى في مواجهة اللغة العربية للغات الوافدة. وما الظواهر الماثلة في عالم الفضائيات والاتصال إلا دليل على ما آلت إليه أوضاع لغتنا... وتكفينا الإشارة إلى الكارثة التي يمكن أن تواجه اللغة العربية على أيدي أبنائها في الإعلام المكتوب

---

(1) دراسات في العربية وتاريخها ١٦٣ و ١٦٥.

والمقروء، وفي التأليف الورقي والإلكتروني؛ وفي المناقشة والمحاضرة... فقد شاعت الأخطاء اللغوية في كل منها على نحو واضح؛ لأن عدداً غير قليل ممن يتصدون للغة لا يتقنونها، وإن كان بعضهم كتاباً وشعراء وقاصين... بل إنهم رسخوا أغلاطاً لا حَدَّ لها في الكتابة والمحادثة، وراحوا يعتمدون مقولة كاذبة وساقطة: خطأ مشهور خير من صحيح مهجور...

إننا نتعرض لذبح لغوي يومي؛ إنه ذبح يكاد يكون منهجياً ومرسوماً له، ولا سيما حين فتحت الشابكة على مصراعيها أمام عدد كبير من الذين لا يحسنون النحو والإملاء...

لابد لكل غيور على هويته وتراثه ولغته أن يتصدى للمشكلة بفعل ذاتي وفاعل... لإعادة دفة السفينة إلى مسارها الصحيح؛ على الرغم من أن اللغة في سورية ما تزال أفضل حالاً من بقية البلدان العربية[1].

ولهذا كله فعلى أصحاب القرار السياسي ثم الثقافي والعلمي والتربوي أن يضعوا نصب أعينهم أن لغتهم تمثّل روح أمتهم وجوهر الوجود العربي ووحدته حاضراً ومستقبلاً أياً كانت عظمة الانفتاح الثقافي والأدبي والنقدي واللغوي على الآخر، أو كان حجم الانتفاع بما لديه، نظراً لموقعه المتقدم من النتاج الحضاري المتقدم والمتطور...

القسم الثالث: اللغة العربية جوهر الوجود العربي ووحدته:

بين صمت الحواس وسكون الحرف تقبع عوالم لا متناهية من الحركة والفعل والإبداع والتأثير و... وما يزال التاريخ يُثبت أن عالم اللغة أو الكتابة يملك خصوصية فريدة في الزمان والمكان بما ينطوي عليه من مفهوم التعبير الفكري والجمالي والعاطفي عن الروابط الإنسانية وقيمها الأصيلة.

فعالم اللغة يرفّ على جناح العاطفة الجيّاشة والمشاعر المرهفة التي تغمر النّفس بالسعادة والطمأنينة والفرح والعمل

---

(1) انظر الفصل الثالث: الإجراءات المتوخاة ص ١١٥ وما بعدها.

والألفة لتنتشلها من الحزن واليأس والوحدة والعزلة والقلق والإحباط...

هناك علاقة عضوية جوهرية ووجودية بين اللغة والمواطنة المسؤولة التي ينبغي أن يتّصف بها العربي لساناً وثقافة وموقفاً عملياً؛ لينعم وطنه بالتقدم والأمن والاستقرار... فشرف الأمة والوطن من شرف المرء وحريته وقدرته على امتلاك سبيل النهوض والتطور، والتخلص من كل الأشكال الثقافية الهدّامة، ومن كل الأفكار المضلّلة التي تحيق باللغة وأهلها.

فهناك من يدعو إلى الانفتاح على الآخر، واستنساخ لغته وثقافته باعتبارها أساس المدنية في الإنتاج المادي الاقتصادي والتقني[1] وهناك من يدعو إلى العامية المحلية واتخاذها وسيلة للكتابة والمحادثة باعتبار أنها لغة البيئة والحياة، ثم تراه يُنصِّب نفسه قيماً على الإبداع فيرى أن ما استخدمه في هذا المسلسل التلفزيوني أو تلك الحلقة الإذاعية من ألفاظ عامية كانت الأفضل، بل الأنسب!!!.

لذلك كله نرى أن من يدعو إلى اتخاذ اللغات الأجنبية أو العاميات في الوطن العربي وسيلة للتعبير والحديث متخلياً عن لغته الأم إنما يقتل أمته هُويةً ووجوداً، حضارةً وإبداعاً... ويقف موقفاً عدائياً من دعوة أبنائها المخلصين للتمسك بالفصحى كتابة ومحادثة وكأنهم نسوا ما قاله الفيلسوف الألماني (هيدجر): " إن لغتي هي مسكني، وهي موطني ومستقري هي حدود عالمي الحميم ومعالمه وتضاريسه، ومن نوافذها، ومن خلال عيونها أنظر إلى بقية أرجاء الكون الواسع"، أما (فيخته) فقد قال: " إن الذين يتكلمون بلغة واحدة يكوّنون كُلاً موحداً ربطته الطبيعة بروابط متينة".

وحين ينظر أحدنا إلى هذا الفصل بما انطوى عليه من قراءة موضوعية لواقع اللغة العربية يدرك أهمية استشراف التجربة المُرَّة التي مرَّت بها؛ ويتبيَّن قيمة الرؤى الفكرية التي

---

[1] انظر ما يأتي ص ١٠٢ وما بعدها.

اشتمل عليها... بل إن التوصيف الماهر للمرض اللغوي يُظهر أن هناك انحرافات لسانية وتشوهات فكرية؛ أخذت تفرز تسلل الخلل إلى مفهوم الوطنية والقومية؛ على اعتبار أن اللغة من أهم أركان هذه الهوية.

ومن ثم فإن المفهوم الوطني القومي في عالم اللغة يظل حاضراً وبارزاً على الدوام بما يثبت أن اللغة لم تعد مجرّد تعبير عن الحاجات والمشاعر والأفكار وإنما أضحت جزءاً لا يتجزأ من الخصومة الوطنية والقومية بين الثقافة العربية وبين ثقافة العولمة التي تريد أن تبتلع الثقافات الخاصة بالشعوب. فاللغة ـ حقاً ـ وعاء الثقافة، وأس التفكير الحر والسليم والانسجام والتوافق، وجوهر امتلاك القدرة الذاتية التي تقف في مواجهة الصراعات الدولية، والفوضى العارمة التي تتركها في عالم اليوم...

وهذا يعني أن القراءة الصحيحة لواقع الأقوياء والضّعفاء في عالم اليوم توضح لكل ذي عينين أن حاضر كل ضعيف يتضاءل ما دامت قدراته على الإنتاج المادي والفعل الإبداعي محدودة أو متخلفة، وما دام عُرْضةً لتقلبات لغة الآخر وثقافته، تابعاً له مستنسخاً لكل ما يصدر عنه، ما يؤكد أنه لن يكون لـه مستقبل حضاري بين الشعوب الصانعة للحياة...

وفي ضوء ذلك يغدو الإصلاح الوطني والقومي وتطويره لدى العربي ناقصاً وفاقداً لقيمته إن لم تصلح لغته ويستقم لسانه، ثم إن وطنية العربي تتلاشى حين يفقد لغته العربية الجميلة التي استطاعت أن تستوعب الأمس بكل تجلياته واتجاهاته...

ومن ثم إذا كانت الفصحى صلة الوصل بين العرب والمسلمين فإن هتك حرمتها سيهدم العلاقات الجوهرية بينهم، كما هو حاصل هذه الأيام مع بعض الدول الإسلامية.

ويبدو أن كل ما يحدث حولنا يجري خارج إرادتنا ووعينا فلا نحن نعرف قيمة لغتنا كما ينبغي لنا، ولا نحن نشعر الشعور الصحيح بحركة المتغيرات من حولنا، وعلى مختلف الصُعُد إذ ما زلنا نتلقف كل ما يأتي إلينا من الخارج، ونهدم كل ما لدينا في الداخل.

وهكذا فإن الحديث في هذا الاتجاه يحمل شجوناً كثيرة، إذ

طفقت بعض الأصوات تنادي بدعوى الفصل بين اللغة وهوية المجتمع وانتمائه... بل ارتفعت عقيرة بعض هذه الأصوات إلى درجة نعت المتمسكين باللغة العربية وأساليبها بأنهم متخلفون وغير قادرين على مواكبة التطور الحديث، بحجة أن اللغة كائن اجتماعي متطور، ما يعني أنه ينبغي علينا اتخاذ لغة الحياة الجديدة وسيلة لحياتنا وثقافتنا...

وقد تناسى أمثال هؤلاء الحداثيين أنه لا يسمح لأحد أن يخطئ في اللغة الإنكليزية، أو أي لغة أجنبية؛ وكأن حُرَّاسها لم يعودوا مقتصرين على أهلها الخُلَّص. فمن المعيب عندهم أن يخطئ أحد منا بنطق الإنكليزية أو كتابتها؛ على حين أن الخطأ في العربية ليس بضار لها؛ ولا يعاب على لسان أولئك الحداثيين... بل إن حُرَّاسها قد طفقوا يتنازلون عن مهمتهم في الدفاع عنها، على الرغم مما تملكه من الجمال والرونق والبهاء والثروة اللغوية الكبيرة؛ فضلاً عن قوانينها المرنة التي تشكل مادة خصبة لاستيعاب كل ما يستجد في حياتنا المعاصرة... وهي تمد الدارسين بكل ما يحتاجون إليه من معان جديدة[1] ومن استعمالات تقنية مستجدة.

ولست في صدد الرد على أولئك الذين يزعمون أن اللغة العربية معقدة صعبة، متخلفة، على اعتبار ما يملكونه من شعور زائف يعود إلى الفهم الخاطئ الذي يحملونه، أو يعود إلى الفهم الخاطئ في كون اللغات الأجنبية أكثر ملاءمة لمتطلبات العصر، وكأنهم وقعوا راغمين تحت تأثير نظرية ابن خلدون في شأن الغالب والمغلوب.

فإذا عثرنا على عدد غير قليل من العرب الذين حسنت نياتهم نحو تعريب العلوم والفنون والتقنيات و... ورأوا أن العربية قادرة على مواكبة العصر المليء بالإنجازات الحضاريّة فإن هناك عدداً آخر يجهلون قيمة هذه اللغة، ويرون فيها العجز عن القيام بالوظيفة المطلوبة كما يجب

---

[1] انظر مثلاً تعريب العلوم الإنسانية: قضايا ومقترحات – محمود إبراهبم – ص ٥٢، والتعريب بين التعمير والتخريب – حسن عايش – ص٧٥.

لها... لذلك يتمسكون باللغة الأجنبية. أما الذين استغربوا فاستلبت إرادتهم، فإنهم لا يرون أي شيء يخصّ العرب إلا في إطار تبني المنهج الغربي ولغته وثقافته... وهو الشرط الوحيد عندهم للنهضة والرقي... إنهم قطعوا العلاقة بينهم وبين أصالتهم وتراثهم ولغتهم بحجة مريبة، أقل ما يقال فيها: إنها توضح تخلي أولئك المتغربين عن هويتهم ولغتهم التي تمثل روح أمتهم... وإذا كان عدد منهم ينظر إلى تعريب الطب والعلوم هبوطاً في المستوى العلمي فيكفي أن نعيدهم إلى تجربة الدكتور زهير السباعي في كتابه المعروف (تجربتي في تعليم الطب؛ ص ٣٣ وما بعدها)[١].

ويكفي أن نسوق في هذا المقام شهادتين لبعض الغربيين تدلان على قدرة اللغة العربية على نقل الحضارة واستيعابها، إذ قال اللغوي الشهير (إدوارد سابير): " هنالك خمس لغات فقط تشكل أهمية كبرى لنقل الحضارة هي اللغة الصينية القديمة والسنسكريتية والعربية والإغريقية واللاتينية" ثم قال: "إن من المخيب للظن أن نعلم أن التأثير الحضاري العام للغة الإنكليزية لم يكن إلا تافهاً، فإن الإنكليزية نفسها ما كانت تنتشر إلا لأن الإنكليز استعمروا أعداداً هائلة من الأصقاع"[٢].

واللغة الإنكليزية تنتشر اليوم وتفرض سيطرتها على بقية اللغات وتنتج مصطلحاتها الخاصة بها؛ وبالفلسفة المنبثقة عنها بفضل الهيمنة الأمريكية على العالم؛ فيما يقال بعصر العولمة الأمريكي...[3]

أما الشهادة الأخرى فهي للمستشرق (أرنست رينان) ولا

---

[١] انظر: كتاب اللغة العربية في عصر العولمة – د. أحمد بن محمد الضُبيب – مكتبة العُبيكان – الرياض – ط٢ – ٢٠٠٦م – ص ٤٢ – ٤٨، وانظر فيه ٨٣ – ١٢٦.

[٢] انظر: اللغة العربية في عصر العولمة ٨٩.

[3] انظر مشروع القومية العربية إلى أين - ص ١٢٥ وما بعدها، القسم الخاص بهوية المصطلح.

سيما قوله: "من أغرب ما وقع في تاريخ البشر، وصعب حلّ سره انتشار اللغة العربية. فقد كانت هذه اللغة غير معروفة بادئ بدء؛ فبدأت فجأة في غاية الكمال، سَلِسَة أيَّ سلاسة، غنية أي غنى، كاملة بحيث لم يدخل عليها إلى يومنا هذا أي تعديل مهم، فليس لها طفولة ولا شيخوخة، ولا نكاد نعلم من شأنها إلا فتوحاتها وانتصاراتها التي لا تبارى"[1].

وعلى الرغم من أهمية الرأيين السابقين فهناك آراء شتى تثبت أن ما آل إليه حال اللغة العربية في عصر تفجر المعلومات والمعارف والتقنيات إنما يرتبط بوضع أهلها ومساهمتهم في إنتاج أنماط فاعلة في النشاط الإنساني. فالتمكين من المعرفة واللغة إنما يرتبط بالهمم العالية التي تتعب الأجسام في مرادها، والمعارف كلها يتعلق بعضها ببعض، وينبغي ألا تخدعنا الأقاويل الطنانة بأن لغتنا لا تزال بخير. فالعرب لم يعودوا منتجين للثقافة العالمية، أدباً وفكراً أو نقداً وعلوماً وفنوناً ومصطلحات؛ وتقنيات... وإنما غدوا متلقين لها، على حين أن الوضع السليم يكمن في التفاعل بينهم وبين غيرهم بالتبادل المعرفي والتقني والفني و... وبهذا تثرى لغتهم، وتنتهي الأزمة التي تتعرض لها، علماً أن عدداً غير قليل من العرب أصبحوا جاهلين بلغتهم التي تمثل روح عقيدتهم ما جعلهم غير فاهمين لكثير من فاعليتها وخصوبتها كما قال ذات يوم الشيخ (محمد عبده). وإذا كان خصوم العربية قد شهدوا لها بالحلاوة والطلاوة والمتانة والانتشار فإنما كان ذلك بفضل أولئك الرجال العظماء الذين حملوها لغة فكرٍ وعقيدة، ولغة تمدّن وحضارة فانفتحت على العالم القديم وثقافته واستوعبت كل ما لديه، وظلت حريصة على حمل روحهم العربية الإسلامية في الوقت الذي اتصفت بالرقة والجمال... ولعل مجرد التغني بالماضي وعظمته من دون أن نقدّم شيئاً لحاضرنا ومستقبلنا إنما يوقعنا في الوهم

---

[1] اللغة العربية بين حماتها وخصومها ـ أنور الجندي ـ ط مطبعة الرسالة ـ بيروت ـ ص ٢٥.

والانحراف، ولن نستطيع أن نخطو خطوة واحدة إلى التقدم والسمو، وستبقى لغتنا عاجزة عن مواكبة الإنجازات المعاصرة... وهذا يعني أن نبذل الجهود الجبارة على كل صعيد لنصبح مؤثرين في النتاج العالمي ولتغدو لغتنا متلقفة من الناس... لذا علينا تنظيم العلاقة بيننا وبينها، ومعرفة عوامل قوتنا وقوتها، وإدراك طبيعتها ووظائفها لجعلها قادرة على استيعاب أحدث الاختراعات والاكتشافات والمصطلحات والنظريات...

وإذا كان مفهوم اللغة يعادل مفهوم الهوية والانتماء فلا يعني
أن نقع في مطب التعصب لمجرد الرغبة في الحفاظ على لغتنا، إذ علينا أن ننفتح على ثقافة الآخر وحضارته بعقلانية وموضوعية.. فإلباس اللغة العربية ثوب النزوع العرقي إنما يصبح أداة هَدْم وذبح لها من جديد، ولكن بأيدي أبنائها الذين يريدون لها كل خير، ولا سيما أننا نعيش عصر العولمة لغة وثقافة وتقانة وإعلاماً و... فعصر العولمة الذي تقوده واشنطن قد جعل الهيمنة للغة الإنكليزية على بقية اللغات بما فيها اللغة الفرنسية والإسبانية والإيطالية والألمانية والروسية واليابانية والصينية وغيرها... وقد أخذت كل دولة تحمي لغتها بالشكل الذي تراه مناسباً لاستمرارها، على اعتبار أن أي لغة إنما تمثل روح أمتها وخصائصها المميزة لها.. وقد اجتهد كثير من أبناء تلك الدول في إحياء لغتها وإشاعتها مهما كانت صعبة أو معقدة كما هو حال اللغتين (اليابانية والصينية)، ومهما ابتليت بالعجز والتقصير كما هو حال اللغة (الروسية) ومهما كانت بعيدة عن الاستعمال حتى كادت تنقرض كما هو حال اللغة (العبرية)...

أما حال كثير من مفكرينا وأدبائنا وباحثينا فإنه حال يدعو إلى العجب؛ إذا أغفلنا وضع اللغة العربية في الحياة الاجتماعية، والحياة الفنية؛ إذ أخذت الأعمال الفنية تتبنى اللهجات المحلية بحجج واهية ومريضة كما هو شأن الدراما التلفازية؛ إذا أهملنا الفتنة الدينية طائفياً ومذهبياً، كما نجده في لبنان؛ فهي تتجه إلى استعمال ثنائية اللغة المحلية والأجنبية.

فإذا كان التعامل مع اللغة أي لغة يتعالى عن التجربة الشخصية أو الوطنية أو القومية، باعتبارها نظاماً مجرداً، وأداة للاتصال فإن التواضع على ماهيتها يجعلها تمتد إلى جذور اجتماعية وثقافية مميزة لأي جماعة سكانية، مما يجعل اللغة تجربة إنسانية اجتماعية مركبة ومعبرة عنها وعن تطلعاتها ونفسيتها، في الوقت الذي تغدو أداة لنقل معارف الآخر وثقافته وتقنياته و... فالدخان يدل على النار والصراخ يدل على الألم، وتصبح اللغة علامة طبيعية واجتماعية وفكرية ونفسية[١]. ولذلك رأى جون جوزيف ((أن ظاهرة الهوية في عمومها يمكن أن تفهم باعتبارها ظاهرة لغوية))[٢] تخص مجموعة السكان الذين تفاعلوا فيما بينهم وكونوا لهم علاقات خاصة أنتجتها بيئة طبيعية واجتماعية وثقافية يطلق عليها الوطن[٣].

فهذا الوطن يطبع أبناءه بخصائص معينة باعتبارهم ينتمون إلى نسب مشترك، وإن آمنوا بآراء شتى وعقائد عدة... علماً أن الهوية تتجاوز في مصادرها ومصالحها المشتركة قيمة النسب المشترك.

وعليه فإن الصراعات اللغوية ترتبط بالثقافة والعقيدة والطائفة والمذهب، وبالهوية أو (العرق) الذي تعبر عنه، ((وإن التفكير في اللغة والهوية يستلزم تحسين فهمنا لماهيتنا، في أعيننا وفي أعين الآخرين))[٤]. وهذا كله يؤكد أن العولمة بما تنطوي عليه من فلسفة وثقافة مهيمنة قد جعلت اللغة الإنكليزية علامة لها تعبر عن ماهيتها، حتى غدت الخطر الأعظم على اللغات الأخرى بما فيها اللغة العربية...[5]. على اعتبار أن لغة العولمة

---

(١) انظر اللغة والهوية ــ ص ٣٠ ــ وما بعدها.

(٢) المرجع السابق ص ٣٢.

(٣) انظر بحثنا (الوطن والمواطنة) في مجلة الفكر السياسي العدد ٢٥ ـ ص ٧ ـ ١٧.

(٤) المرجع الأسبق ص ٣٤.

(5) راجع ما تقدم ٣٠ ـ ٣٤.

أخذت تكتسح عدداً من شعوب العالم، فأنستها لغتها، فضلاً عن أنها غدت لغة الاتصال والتقنيات والمراسلات في كثير من بلاد العالم، علماً أن اللغة الأجنبية أصعب من اللغة الأم لأي متعلم في تلك البلدان. إذاً، فالسبب في كونها لغة العولمة يرجع إلى قدرة المتكلمين بها على الفعل والإنتاج في كل مجال من مجالات الحياة، ما جعل الناس محتاجين إليها، ورأوا فيها وسيلة أولى للتفاهم والمراسلات وتلقي الفنون والعلوم والتقنيات، والاتصالات... حتى طغت على غيرها من اللغات، وطفقت تقصيها واحدة إثر الأخرى.. وهذا ما حصل للعرب حين دخلوا عصر الحاسوب والشابكة والتقنيات الفضائية، والإعلام الكوني؛ وغير ذلك مما جعلهم يحلّونها محل لغتهم في عدد من المؤسسات، وصار إتقان اللغة الأجنبية وبخاصة الإنكليزية مطلباً أساسياً للوظيفة، ولو كان الوسط الوظيفي المطلوب لا يحتاج إلى أي لغة أجنبية..

وهذا لا يعني لدينا أن نهمل معرفة اللغات الأجنبية وإتقانها؛ بل إن طبيعة الحياة الإنسانية تقتضي بالضرورة تعلم لغة الآخر، لفهمه واستيعاب ما لديه فكراً وفلسفة وثقافة وعلماً و... علماً أن إتقان أي لغة أجنبية قد يندرج وفق اهتمامات الأشخاص؛ فقد يتقن إنسان ما عدداً من اللغات في إطار تصوراته الذاتية والثقافية، من دون أن يؤثر ذلك في لغته الأم، أو أن يهدم العلاقة بين لغته وهويته كما رأيناه عند عدد من الأدباء والمفكرين أمثال طه حسين ومحمد مندور وعبد السلام العجيلي، وعبد المعين الملوحي وحافظ الجمالي وغيرهم.

وأياً ما يكن شأن لغة العولمة وسيطرتها فإنما يعود ذلك لقدرة الدولة العظمى المسيطرة في أيامنا هذه، ولن تستطيع تجريد لغتنا العربية من النزعة الماهوية التي تعد المميز الأصيل لأمتنا بما تمثلهُ من ضبط دقيق لمصلحة أبنائها المشتركة وحين يتخذ ((أندرسون اللغة القومية كمعطى بحيث يقدم الأساس الذي يمكن لباقي الهوية القومية أن تبنى عليه يدرك هوبسبوم أن اللغة القومية في حدّ ذاتها بناء استطرادي:

إن اللغات القومية نقيض ما تفترضه ميثولوجية القومي؛

أي إنها التأسيسات الأصلية للثقافة القومية والتصفيفات للذهن القومي))[1].

وبناء عليه لابد للساحة اللغوية العربية أن تشهد ـ وعلى مختلف الصُّعُد والمستويات ـ حالة نوعية من التبصير والتوعية، ووضع البرامج الموضوعية والعلمية لتعليم اللغة العربية من البيت إلى الحي إلى المسجد والكنسية، إلى المدرسة والمعاهد والجامعات، إلى المؤسسات والوزارات.. ينبغي أن تُحدث ورشات عمل لغوية سريعة ومتمكنة تقوم بإعادة تأهيل للقائمين على اللغة في الإعلام والوزارات كلها ولاسيما وزارة التربية والتعليم العالي، والأوقاف والثقافة والخارجية، والمغتربين؛ والشؤون الاجتماعية والعمل...

فالمشروع اللغوي التربوي يحتاج إلى إعادة تقويم موضوعي ثم إيلاء المناهج اللغوية العناية العلمية والموضوعية الدقيقة التي تناسب كل شريحة متعلمة... فإذا كان التعليم يمثل العمود الفقري للتنمية اللغوية فإن الأدب والأبحاث والصحافة تمثل هي الأخرى البُعد المساند لعمل المعلم... ومن ثم علينا أن نشجع القراءة ونرغب فيها ونضع لها الحوافز المشجعة للأطفال خاصة وللكبار عامة في عصر أخذت فيه الفضائيات والتلفزة تشد الناس إليها؛ فمهارة المشاهدة والاستماع ليست كافية وحدها لتعلم اللغة ـ اللهم إذا كانت اللغة المسموعة صحيحة ـ إذ لابد من تكامل المهارات في تعلم اللغة من الاستماع إلى التقليد والمحاكاة إلى الفهم والاستيعاب؛ ثم التمثل والتدرب والتعبير...[2]

علينا أن نعيد البريق إلى لغتنا من دون أن نهمل إتقان لغة أجنبية أو أكثر، إذ إن هذا الإنجاز ليس عسيراً ولا صعباً إذا توافرت فيه الإرادة.

وفي ضوء هذا الفهم ينبغي ألا ننظر بريبة إلى فرض لغة أجنبية على تلامذتنا في المدرسة الإعدادية والثانوية، حتى

---

(١) انظر اللغة والهوية ١٦٥ ـ ١٦٦.

(2) انظر القسم الثالث: الإجراءات المتوخاة ١١٥ وما بعدها.

الجامعية؛ ومن ثم يجدر بنا أن نجعل المرحلة الابتدائية وبخاصة الصفوف الأولى مخصصة لتعلم اللغة العربية وإتقانها، وربط الطلبة بها وبتراثها وثقافتها، وإيلائها العناية اللازمة حتى لا تطغى اللغة الأجنبية على اللغة الأم، ولا سيما أن مؤسسات عدة قد أخذت تعنى باللغة الأجنبية وتهمل العربية، وتخصص لها من المبالغ والجهود ما ينوء به الزمن والمال، ولو وُفّر جزء مثله لتعليم اللغة العربية لتيقن أولئك الذين يصمونها بالتخلف والعجز بأنها لغة قادرة على مواكبة الحياة الاجتماعية والعلمية والتقنية و... فمهما أشاح أعداء العربية وجوههم عنها وتنكروا لها، واستباحوا حرمتها فإنهم لن يستطيعوا أن يحجبوا أشعتها الوهاجة، وسيظل رونقها الوضاء ممثلاً لنضارة الحرف العربي الذي سيلقي بهم إلى شفير الهاوية...

وعلى الجميع أن يتصالحوا مع ذاتهم الفردية والقومية وهم يتوجهون إلى تطوير لغتهم مستفيدين من بنيتها وطاقاتها الجبارة في المفردات والتراكيب والأساليب لجعلها لغة حياة وإدارة وعمل وفكر وحضارة تنفتح بواباتها على الانتماء العربي وتراثه بمثل ما تنفتح على الحضارة الكونية التي تنتج ثقافاتها المعرفية بشكل مطرد، وعليهم ـ جميعاً ـ أن يكونوا جادين صادقين في نياتهم وسلوكهم، قولاً وفعلاً.

وفي إطار ذلك كله ووفقاً لمطابقة القول للفعل مصداقاً لقوله تعالى: [يا أيها الذين آمنوا لِمَ تقولون ما لا تفعلون، كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون] (سورة الصف ٦١/ ٢ ـ ٣) فإن من يدعو إلى استعمال اللغة العربية يجب أن يكون متقناً لها، وأن يكون القدوة الحسنة فيها، وفاقد الشيء لا يعطيه.. وعلينا جميعاً أن نكون على مقدار تحمل المسؤولية في إشاعة استعمال اللغة العربية وتعميمها؛ بعد وضع البرامج العلمية المتكاملة لنشرها. ولا يغيب عن بالنا أن نسعى ـ نحن العرب ـ إلى وضع خطط استراتيجية مدروسة ومتكاملة بين المؤسسات العربية والتنسيق فيما بينها من أجل خدمة العربية في الحياة الاجتماعية والثقافية والعلمية والأدبية والإعلامية

والتقنية وفي المراسلات وغيرها.. وإلا تبعثرت الجهود وضاع الهدف الذي نسعى إليه... فاللغة العربية لا تمثل شكلاً وطنياً لهذه الدولة أو تلك وإنما تمثل روح الأمة وهويتها الأصيلة من المحيط إلى الخليج.

وفي ضوء ذلك يغدو الإصلاح والتطوير والتحديث ناقصاً وفاقداً الأهمية إن لم تصلح لغة العربي ويستقم لسانه، بل إن وطنية العربي تتلاشى حين يفقد لغته العربية الجميلة التي استطاعت أن تستوعب الأمس بكل تجلياته واتجاهاته...

ما يعني أن هناك علاقة عضوية جوهرية ووجودية بين اللغة والمواطنة والمسؤولية التي ينبغي أن يتّصف بها العربي لساناً وثقافة وموقفاً عملياً؛ لينعم وطنه بالتقدم والأمن والاستقرار... فشرف الأمة والوطن من شرف المرء وحريته وقدرته على امتلاك سبيل النهوض والتطور، والتخلص من كل الأشكال الثقافية الهدّامة، ومن كل الأفكار المضلّلة التي تحيق باللغة وأهلها.

هذه بعض مضامين هذا الفصل إذ ربط بين صلابة الموقف الوطني والقومي ومواجهة الحياة وهو يُنبِّهُ على أن حقّ اللغة من حق الوطن: فهل ننتبه؟! وهل نعي قيمة اللغة العربية لتمكينها في واقعنا، وجعلها لغة المستقبل؟ هذا ما يحاول أن يجيب عنه الفصل الثالث.

الفصل الثالث
اللغة العربية حاضراً ومستقبلاً

القسم الأول: اللغة نتاج وظيفي للحياة

أ ـ اللغة إدراك حسي.
ب ـ اللغة أداة تواصل وفهم وتفسير وتفاعل.
ج ـ ضبط السلوك الاجتماعي والثقافي والفني.
١ ـ أثر الأسرة والتعليم المبكر
٢ ـ أثر البيئة الطبيعية والاجتماعية.
د ـ ضبط السلوك الثقافي والفني في الواقع الرسمي.

القسم الثاني: تجليات الوعي اللغوي

أ ـ وعي المشكلة اللغوية.
ب ـ عناصر موضوعية لتجاوز المشكلة.
١ ـ النص القرآني
٢ ـ ثراء أساليب العربية
٣ ـ نظام العربية
ج ـ عناصر إنسانية لتجاوز المشكلة:
١ ـ القدوة الحسنة.
٢ ـ أساليب الترغيب.
٣ ـ الإجراءات المتوخاة

القسم الثالث: اللغة العربية وتربية الإبداع

١ ـ اللغة مادة الإبداع
٢ ـ أثر اللغة في تربية الإبداع
٣ ـ أثر تدريس اللغة في تربية الإبداع

ـ الختام

اللغة العربية
حاضراً ومستقبلاً

ثبت لدينا مما تقدم أن اللغة إنما تتعدد بتعدد أنماط العلاقات الاجتماعية؛ والثقافية، والطبيعية باعتبارها ظاهرة بيئية تستوعب ما ينشأ عليه أبناؤها.... وهذا ما كان قد نفد إليه أجدادنا في العصر الجاهلي حين ميزوا صفاء لغة بعض القبائل من لغة قبائل أخرى... لانحيازها إلى مكان ما؛ ما يثبت أن اللغة نتاج وظيفي بيئي فني جمالي لجملة من المؤثرات والعناصر وفي طليعتها المؤثرات السياسية والروحية..

وحينما تكون اللغة نتاجاً وظيفياً للحياة فهي تمرّ بمستويات عدة وفق ما يأتي.

القسم الأول: اللغة نتاج وظيفي للحياة:

أ ـ اللغة إدراك حسي للعلاقات المادية بين الإنسان وما يستعمله:

ذهبت الدراسات الاجتماعية المتخصصة إلى أن الذات الفردية /الأنا/ لا تنمو وتتطور بمعزل عن الأشياء والظواهر، في الطبيعة والحياة... فأي سلوك فردي فطري ابتدائي إنما يتجسد بتكراره ويرقى بتفاعلاته الاجتماعية، ثم يغدو في لغته معبراً عن نفسية معينة، وذهنية خاصة. فالاتصال الذي يحدث بين الإنسان وعالمه الخارجي سواءً كان طفلاً أم كبيراً، وكيفما انتقل من مكان مألوف إلى آخر غريب إنما هو اختبار للغته وتطورها في الوقت الذي تعدُّ اللغة اليوم ـ في أبسط حقولها ـ نظاماً سيميائياً يحمل في ذاته دلالته وعلاقات تفسيره، لتقديم وظيفة من الوظائف في التبليغ والإبلاغ والتواصل، والتعبير و ... فاللغة تنمو بنمو القدرات الذاتية للإنسان، وترتقي بارتقاء علاقاته الثقافية والاجتماعية، مهما كانت المعوّقات التي يتعرض لها، ثم يصبح لنمطية التكرار

أثرها الكبير في تعزيز ملكاته اللغوية. وهذا يوحي بأن أي لغة في الكون إنما تنشأ خارج الذات الفردية، ويبقى أمر معرفتها، ثم نموها وتطورها بيد من يتعامل معها ومع الوسط الذي تعيش فيه في إطار الحاجة والاهتمام من جهة، وفي إطار الوظائف الأخرى التي تستند إليها من جهة أخرى، ما يعني أن الحاجات في الوسط الاجتماعي والثقافي والعلمي تعد أبرز مصدر لأهداف التعليم لتنمية المهارات اللغوية استماعاً وتعبيراً وقراءة وكتابة، ولتنمية إدراك الجمال الذي يكتنزه أي نص أدبي... ومن ثم تنمية مهارة الفهم والتحليل والموازنة والحكم، مما يؤكد أن اللغة العربية حاجة عند المتعلم، فإذا أردنا أن يتقن الطالب اللغة فعلينا أن نضعه في ظرف يشعر فيه أنه بحاجة إلى اللغة في حياته وعمله.

وفي ضوء ذلك فاللغة العربية ليست مجرد أصوات مفخَّمة أو مرققة، وليست مجرد حروف تكتب مائلة أو مستقيمة...، وليست مجرد كلمات وعبارات وأساليب فنية وأدبية وبلاغية ونحوية... وإنما هي لغة وجود وانتماء وثقافة، وتاريخ طويل ..أي إنها ـ في صميم هذا الوعي ـ تعد من أعظم الحاجات لدينا.. فإذا كانت لغتنا تتصف بمقومات اللغة الجميلة فإنها تتميز في آن معاً بدلالتها على هوية ممتدة في التاريخ قيماً ومبادئ وعادات وتقاليد وأدبيات... من نداها شربت الأذواق والمشاعر؛ وبظلها ارتقت العقول، ثم تطورت الأفكار بتطور جوهرها الثقافي الإنساني الذي كوَّن أطرها الخاصة لتشكل نمطاً من الهوية الواحدة لمن ينطق بها، وهو ما يتضح لنا من قول الرسول الكريم: ". أيها الناس: إن الرب واحد، والأب واحد، ليست العربية من أحدكم بأب ولا أم، العربية اللسان، فمن تكلم العربية فهو عربي".

وهذا يعني ـ أيضاً ـ أن العربية ثقافة وحضارة، قبل أن تكون أداة تفسير لهما، وهو مانتحدث عنه فيما يلي:

ب ـ اللغة أداة فهم وتفسير:

لمّا كانت اللغة ـ أياً كان نوعها ـ مواجهة للواقع المعيش، فلا بد من التفاعل معه، ثم فهمه والسعي إلى تفسيره بما يحقق

تصورات الذات عن الوجود على مختلف الصُّعُد. فالإنسان يحتاج إلى مجتمع ينتمي إليه لأنه يلبي لديه الاطمئنان والاستقرار، ويقوي التبادل المعرفي واللغوي بين أبنائه، ويمنحهم التوازن الجسدي والنفسي والذهني... ومن ثم فهناك مستويان لغويان ينشآن عن تلك المواجهة، مستوى عام يُعنى به الناس جميعاً، ومستوى خاص تعنى به مجموعة من السكان[1]. ومن هنا نفهم: لماذا نشأت في العصر الجاهلي لغة عامة للقبائل هي لغة قريش ـ على الأغلب ـ وهي اللغة الأدبية التي كتب بها الشعر والنثر... ولغة خاصة اختارتها القبائل لنفسها وسيلة للتفاهم، وظلت مرتبطة بالبيئة المحدودة بها؟!. ولم تكن اللهجات الشائعة آنذاك لتؤثر في اللغة الأدبية لأنها متوافقة في أبنيتها مع أبنية تلك اللهجات وإن اختلفت في الدلالة، وما لغة حمير ببعيدة عن أذهان الناس ولا سيما المتخصصين باللغة منهم. وهي الصورة التي نراها اليوم في حياتنا على نحو ما... فهناك لغة عربية رسمية للكتابة والإبداع والحوار والنقاش في المدارس والجامعات العربية والمؤسسات الرسمية المتعددة ـ وإن تراجعت الفصحى فيها ـ وهناك لهجات عامية تختلف من منطقة إلى منطقة ومن بلد عربي إلى آخر. ومن ثم فهناك عدد غير قليل يدعو إلى الاستمرار في اعتماد التراث الشعبي من أمثال وأغانٍ شعبية وحكايات و...[٢] بل نشره وتشجيعه ... ولذلك فهناك كثرة كاثرة من الناس يرون الحديث بالعامية وحصر الفصحى بالخاصة من القوم؛ وببعض الاتجاهات الفكرية والأدبية على اعتبار ما ذكر، فلهجة كل بلد في الوطن العربي هي أداة التواصل ولغة الحياة اليومية المعروفة من الناس جميعاً...

ولهذا فنحن حين نتحدث عن اللغة العربية الفصحى باعتبارها

---

[1] راجع ما تقدم ٢٤ وما بعدها.

[٢] انظر ـ مثلاً ـ الشعب المصري في أمثاله العامية ـ إبراهيم أحمد شعلان ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ القاهرة ـ ١٩٧٢م ـ ص٥٠. راجع ما تقدم ص ٥٤ ومابعدها.

لغة الكتابة والحديث للعرب كافة علينا أن نشير مجدداً[1] إلى ما يتعلق باللغات الوافدة التي اتخذت لنفسها موقعاً قوياً في الساحة اللغوية العربية سواء كانت تتعلق بالفصحى أم بالعامية؛ ما أنتج صراعاً جديداً من نوع ما. وقد ظهر هذا الصراع في صميم ملاحظة الأنساق الاجتماعية وتصرفات الناس في حياتهم اليومية؛ وفي إطار حاجتهم الشديدة إلى كل ما يرغبون في معرفته وتعلمه... فالتراث الشعبي، والممارسات اليومية مليئة بالكلام الغريب الوافد الذي لا يعبر بدقة عن مشاعر الناس وآرائهم وحاجاتهم، وخبراتهم وثقافتهم، لما فيه من الهجنة.

ولابأس علينا أن نعيد القول إن اللغة العربية تعيش عند بعض الباحثين والمثقفين إشكالية كبرى في الوعي الاجتماعي لدى المثقفين قبل العامة، بل إن كثيرين منهم يرون أنها لغة تاريخية نشأت خارج الإرادة الجمعية للناس اليوم، أي إنها لغة تنبثق من خارج الذات الفردية والاجتماعية، ما يفرض علينا التخلي عنها ــ في زعمهم ــ لأنها لم تعد قادرة على مواكبة العصر، وعلينا أن نحلَّ محلها لغة أجنبية بديلة من اللغات العالمية الحية التي يتفق عليها القوم أو عليهم استعمال اللهجات المعاصرة...، وفي ضوء هذا التصور ذاته نقول: إن أي لغة أجنبية ــ مهما كانت طبيعتها ــ تعيش هي الأخرى خارج الذات الفردية والجمعية، وكذا هي أي لهجة أخرى. وهذا يضعنا ــ مباشرة ــ أمام أمور مهمة لمعالجة هذا الانحراف في الفكر والسلوك.

ج ــ ضبط السلوك الاجتماعي والثقافي والفني:

١ ــ أثر الأسرة والتعليم المبكر:

قيل منذ القديم: (العلم في الصِّغَر كالنقش في الحجر)، ما يعني أن اللغة تنشأ في حجر الأمهات والمربيات، لتصبح حقيقة ماثلة داخل الذات الفردية والاجتماعية. فاللغة صنو ثدي الأم، ابتداءً من المناغاة وانتهاء بمحاولة الطفل نطق بعض الحروف ثم الكلمات حتى يصل إلى تركيب العبارة المناسبة

---

[1] راجع ما تقدم ٥٤ وما بعدها، وانظر ما يأتي ص ١٠٣.

لقدراته. وعليه فالأسرة تصقل اللغة والنفس والأخلاق... وتقيم ضبطاً عالياً للقيم والأعراف والعادات التي ينشأ الأطفال عليها. فالتفاعل اللغوي والثقافي داخل الأسرة يزرع بذرة الإبداع في الطفل، ولا سيما حين يعيش في جو ثقافي اجتماعي ينمي مبدأ الحرية المسؤولة في الحوار والمناقشة[١].

وهذا ما دعا العالم الألماني (هردر) إلى رؤيته التي ذهب فيها إلى أن لغة الآباء والأجداد خزان عظيم من التقاليد والتاريخ ... والفنون والآداب لكل من يأتي بعدهم." والعلاقة بين الفن والمجتمع علاقة أزلية، لازمت وجود الإنسان الأول الذي طبع على حب الاجتماع والتفاعل، فرنا إلى أنجع وسيلة تحقق له الاجتماع الذي يطمح إليه فكانت اللغة ضالته التي يبحث عنها... وأخذت هذه العلاقة مكانتها من خلال وظيفة اللغة في تحقيق التواصل والترابط الاجتماعي بين أفراد المجتمع" [٢]

ولاسيما أقربهم إليه الأب والأم. فسلوكهما يعدُّ " مثالاً يحتذى به، فهو ينقل الطفل من نظام المراقبة إلى نظام ممارسة الضوابط والقواعد، وعندما يكبر يكون مدعماً فكرياً ونفسياً بأصالة السلوك وعمقه للحفاظ على الوسط المحيط" [٣]. وقد قال الشاعر:

وينشأ ناشئ الفتيان منا　　على ما كان عوّده أبوه

وقال معروف الرصافي[٤]:

ولم أرَ للخلائق من محلٍّ　　يهذبها كحضن الأمهات

---

[١] نظر كتاب (نازك الملائكة: ريادة وأصالة) ص ٩-١٠ – المقدمة – سلسلة الكتاب الشهري – رقم (١١) اتحاد الكتاب العرب – دمشق – ٢٠٠٧م.

[٢] انظر البيئة الاجتماعية في لغة طفل ما قبل المدرسة في مدينة عمّان ـ مجلة جامعة دمشق للآداب ـ مجلد ٢٣ ـ عدد ٢ ـ ٢٠٠٧م ـ ص ١٦٤.

[٣] المرجع السابق ص ١٦٧.

[٤] انظر كتابنا (نصوص من الأدب العربي المعاصر ٢٤-٤٥).

فحضن الأم مدرسة تسامت بتربية البنين أو البنات

فلغة الطفل تنمو شيئاً وشيئاً كما ينمو جسمه وعقله، ما يعني أن الثروة اللغوية والأسلوبية تنمو وفق المراحل العمرية. وبمعنى آخر فإن الثروة اللغوية تختلف عمقاً واتساعاً وحجماً تبعاً للمرحلة الزمنية التي ينمو فيها الطفل، ما يؤكد الرعاية الحثيثة للغة الطفل وتأديبه، وتنشئته على حب القيم والوطن والأمة، وإعداده لحراسة تراثها وثقافتها.... وهذا ما قام به أجدادنا في عملية تأديب الأولاد وتربيتهم ... في الوقت الذي لم يغفلوا البعد النفسي الاجتماعي الطبيعي للتربية في حضن الأمهات والأسر / الأفخاذ والعشائر والقبائل، والصحراء، كما سنشير إليه بعد قليل. وهو ذاته الذي انتهى إليه العالم التربوي الأمريكي (جون ديوي) إذ قال: " الثقافة هي الخبرة في الحياة، وما هي إلا ثمرة التفاعل بين الإنسان وبيئته".

فالطفولة المبكرة تعدُّ المرحلة الزمنية المهمة في تعليم الطفل اللغة وتنشئته في بيئة مواتية صحيحة حتى تنبض روحه في لغة أمه، وأبيه، وإخوته؛ وكل من يتصل بهم[١] " فالطفل الذي يتوغل في المجتمع يزداد دور اللغة عنده وتزداد خبرته؛ أي إن اتصال الطفل المباشر بالأشياء والناس وتفاعله معهم يمده بذخيرة من الخبرات العملية الشخصية المباشرة. وتلك الخبرات تساعده على فهم المعاني دون أن يدرك اللفظ، وتساعده على فهم المعاني للألفاظ لا يسمعها من الكبار. وتأتي أهمية المفردات اللغوية كونها وسيلة نمو المدركات الحسية والقدرات العقلية ومستوى النضج العقلي لدى الأفراد" [٢]..

---

[١] انظر البيئة الاجتماعية في لغة طفل ما قبل المدرسة في مدينة عمان ـ مجلة جامعة دمشق للآداب ـ مجلد ٢٣ ـ عدد٢ ـ ٢٠٠٧م ـ ص ١٥٧ ـ ١٩١.

[٢] المرجع السابق ص ١٦١.

ومن هنا نؤكد التأثير السلبي لما تقوم به المربيات الغربيات أو الأجنبيات من إبعاد الطفل عن التربية الفطرية العربية لغوياً وثقافياً و...

وهذا ما يفرض علينا أن نتحدث عن الوسط التعليمي المبكر الذي يدخل الطفل ثم الطالب في تفاعل مستمر مع المواقف التي تمسُّ حياته، وتضعه في مواجهة مع متطلبات جديدة.

فالتعليم بكل مراحله يجب أن يقدم للمتعلم كل ما من شأنه استكشاف بنية المشكلات التي تقع في واقعه اللغوي، وبناء طرائق الحل بالسرعة المطلوبة، فالمشكلات التي تبرز في الواقع الاجتماعي والعلمي والمعرفي تثير في نفوس الطلبة أسئلة شتى تقود إلى أفكار مثيرة تسعى إلى اكتشاف الحقائق المطلوبة... فإذا واكبها استجابة لغوية سريعة كان الإصلاح اللغوي مواكباً لذلك، على اعتبار أن اللغة وسيلة للحياة وأن المعلم مالك لزمام اللغة والمعرفة. فالمعلم الناجح هو من يقود طلبته إلى الاستجابة الصحيحة لأي فكرة، ليعبروا عنها بلغة سليمة تتجاوب مع الوظائف المحددة، والأهداف المرسومة منذ البداية. فأسلوب النقاش ـ مثلاً ـ يجب أن يكون بلغة سليمة، تتناسب والأهداف التي تحقق معرفة دقيقة بالتحليل والتركيب، والفهم والتفسير... وإذا ما ارتبطت طريقة النقاش بطريقة الاستكشاف استطاع المعلم أن يحقق مفهوم التعاون بين الطلبة أنفسهم، ويقوي حسّ المسؤولية بالمشاركة وقبول الآخر، ما يشي بأن "التعلّم الفعَّال هو التعلم الذي يقوم المتعلم باكتشافه لا الذي يقوم باستقباله"[١]. فطريقة التلقين هي طريقة ناقصة، يحتاج إليها المتعلم في أول تعليمه، وفي أوقات تخصص للاستماع فقط، لا أن يبقى المتعلم ساذجاً، أو سمّيعاً؛ على الدوام[2].

وهنا تؤدي النصوص الأدبية الجميلة والمثيرة قديمها وحديثها

---

[١] التصميم التعليمي، نظرية وممارسة ـ محمد محمود الحيلة ـ دار المسيرة والنشر والتوزيع ـ عمان ـ ١٩٩٩م ـ ص ٦٢.

[2] انظر ما يأتي ١٣٥ وما بعدها.

مهمة كبرى كونها تعمق فهم الناشئة بالحياة من جهة، وكونها فرعاً من فروع اللغة العربية من جهة أخرى. فالنصوص تشكيل لغوي جمالي، يهذب النفوس، ويصقل الأذواق، ويقدم الأفكار، ويسمو بالعواطف ويمكن الأجيال من إتقان اللغة و... "فدراسة الأدب مرتبطة ارتباطاً طبيعياً بدراسة اللغة، واللغة والأدب شيء واحد"[1].

ويبقى النص الأدبي كتلة جامدة ما لم يتح له المعلم المؤهَّل، فتأهيل المعلم /المدرس غدا ضرورة ملحة للقيام بواجبه ومسؤوليته نحو نفسه وطلبته ووطنه. فإذا كانت الحاجة إلى المناهج ملحة فإن الحاجة إلى الاستمرار بتأهيل المعلم أكثر إلحاحاً للعملية التربوية والتعليمية واللغوية... وإذا كانت عملية إعداد المعلم مهمة للمهنة، فضلاً عن الاقتناع بها فإن امتلاك المعلم للقدرات الذاتية والمهارات المتنوعة والكفاءات اللازمة للعملية العلمية تقف في درجة عليا تزيد على قيمة التدريب، لأن فاقد الشيء لا يعطيه. فالمعلم مصدر المعرفة؛ وطريقته في التعليم أساس التمثُّل، فهماً واستيعاباً، حباً وكرهاً، و... ولعل هذا الأمر يدعونا إلى إشارة موجزة إلى عناية المعلمين ـ اليوم ـ بالطرائق التي تشجع على المضمون وحجمه، أكثر من عنايتهم بتحسين الأداء واللغة وتربية الذوق الجمالي... دون أن ننسى لحظة واحدة بأن عملية تقويم التعليم الكمي للمضمون مفقودة، فليس هناك من يقوم بتقويم وتقييم للطريقة التي علّم بها، أو للمضمون الذي شدّد عليه. وإذا كان التقويم حاجة ملحة في التعامل مع مضمون أي مادة أدبية أو ثقافية، فإنه يغدو واجباً في تعليم اللغة العربية، وفي إطار التغذية الراجعة لنص من النصوص، دون أن ننسى لحظة واحدة أننا لم نستغل ملكات الطفل/ والطالب الاستغلال الأمثل... فالمعلم الناجح هو الذي يرتقي في تنظيم التعليم، ودفع المتعلم للاستجابة المناسبة لتعديل سلوكه ومواقفه، وتحسين لغته.

ولهذا قيل ـ أيضاً ـ لم نستطع أن نفيد ـ حتى الآن ـ من

---

[1] التربية العامة ـ رونيه أوبير ـ ترجمة عبد الله عبد الدايم ـ دار العلم للملايين ـ بيروت ـ ١٩٦٧ ـ ص ٤٤٦.

ملكاتنا العقلية ومن ملكات الطفل إلا القليل؛ على اعتبار أنه قادر على استيعاب عدد من اللغات في آن معاً؛ اللهم إذا كانت وسائل التربية منذ الصغر علمية موضوعية، وكان أهلها على دراية بما تؤديه وتنتهي إليه من تعليم اللغات للأطفال ... فلماذا يتعلم الأطفال في بعض البيئات عدداً من اللغات على حين يعجز أطفالنا عن ذلك؟ فالعيب ليس في أطفالنا وإنما في الوسط الذي يعيشون فيه؛ ويتعلمون منه؛ إذ الوسائل متخلفة أو ناقصة، وكذا المخزون المعرفي، والوعي الاجتماعي.

وحينما تنجزالمدرسة ثم الجامعة، ومختلف المؤسسات الفكرية الثقافية والتعليمية ذلك كله فإن الإنسان ينشأ على حب وطنه وثقافته ويعتز بميراثه الفكري والحضاري، في الوقت الذي يتصل بالتراث الإنساني... فالإنسان أجزاء متكاملة من المشاعر والانفعالات والتصورات، والملكات والقدرات... وليس مجرد إناء لملئه بالمعلومات. وهذا ينقلنا إلى أثر البيئة الطبيعية.

٢ ـ أثر البيئة الطبيعية والاجتماعية:

إن طبيعة اللغة مفردات وتراكيب وصوراً تتحدد بالوظائف الاجتماعية والسلوكية لأفراد المجتمع في بيئة طبيعية محددة، ما يعني وجود بيئات لغوية اجتماعية تتميز من الأخرى، بل إن العادات والأعراف تفرض على اللغة تسميات ومصطلحات واستعمالات خاصة بها.. فالمجتمعات البدوية ـ مثلاً ـ ما زالت حتى اليوم تسمّي أبناءها بأسماء تغاير على نحو ما الأسماء التي تشيع في الحاضرة... وكلنا يذكر شيوع الأسماء المناسبة للبيئة العربية الصحراوية في العصر الجاهلي مثل (ليث، ضرغام، أسد،..) ولما كانت هذه الأسماء تحمل دلالات الشجاعة والقوة والقدرة... فقد استمرت التسمية بها حتى اليوم بفعل الدلالة الاجتماعية التي حملتها. ولعل هذا كله يذكرنا بقصة الشاعر البدوي المشهور علي بن الجهم (ت ٢٤٩ هـ) إذ قال لما قدم من البادية وتوجه إلى الخليفة المتوكل ببغداد مادحاً إياه بقوله:

أنت كالكلب في حفاظك للود   وكالتيس في قراع الخطوب

وحين هَمَّ المحيطون بالخليفة للنيل منه أدرك الخليفة أثر البيئة الطبيعية الاجتماعية في تكوين المفاهيم ولغتها؛ فنقله إلى بيئة الرُّصافة الغنَّاء فتغيرت لغته، ما جعله يقول قصيدته المشهورة من بعدُ في مدح الخليفة المتوكل[١]:

عيون المها بين الرصافة والجسر جلبْنَ الهوى من حيث أدري ولا أدري

وهذا كله يؤكد أن اللغة سلوك اجتماعي وثقافي يؤدي وظائف يريدها الناطق ويميل إليها طبعاً وعادة علماً أن الطبيعة واحدة من أسباب إلهام الإبداع قديماً وحديثاً [2]..

ومن ثم فإن لغة المجتمع الصناعي مغايرة للغة المجتمع الزراعي، أو الطبي، أو الأدبي... ثم إن لغة أصحاب المعامل والمزارع والنوادي الثقافية، وأصحاب السوق والمحلات ليست لغة واحدة، فهي أدخل في باب التنوع والاختلاف. وهذا يعني أنها لم تعد تدخل في صميم الوحدة في الانتماء إلى لغة واحدة أو اللغة الأم، إذ امتد الأمر إلى تغير الأصوات في نطق الكلمات، وتغير الأساليب في الخطاب من بيئة اجتماعية إلى أخرى. وفي هذا المقام نذكر بعظمة تأثير ما يجري من تسميات للأماكن العامة ومحلات البيع والشراء، إذ أخذت التسميات الأجنبية تقضي على التسميات العربية. وهذا يثبت أن الخطورة اللغوية الاجتماعية والثقافية المتباينة ليست بأقل خطورة من انتشار المصطلحات اللغوية الأجنبية، إذ طردت المصطلح العربي ـ على وجوده[3] ـ وحلت محله في كثير من المواقع على حين كان أجدادنا يحرصون على وحدة اللغة، وإن تنوعت البيئات؛ ما يفرض علينا أن نوجد البيئة الاجتماعية اللغوية الواحدة في الأسرة والحي ودور العبادة ورياض الأطفال والمدرسة العامة والخاصة.

---

[١] انظر تاريخ الأدب العربي – د. عمر فروخ – ص ٢٩٢ – دار العلم للملايين – بيروت – ١٩٨٠م.

[2] انظر كتابنا: إبداع ونقد ٢٦ ـ ٣٠ و ٤٢ ـ ٤٥.

[3] انظر مشروع القومية العربية إلى أين ـ قسم هوية المصطلح وثقافة التغيير ١٢٥ ـ ١٦٨.

... ولا شيء أدل عليها من اختيار أجدادنا للبيئات الصحراوية لتعلم اللغة الصافية، وكلنا يعرف أن النبي الكريم ρ رضع من ثدي حليمة السعدية، وعاش جزءاً من طفولته في بني سعد، فأتته الفصاحة منقادة. وهو القائل: " أنا أعربكم؛ أنا من قريش، ولساني لسان بني سعد بن بكر"[١] . فالحيّز الثقافي ولاسيما اللغوي والأدبي يكتسب ماهيته الإبداعية من الحيّز الطبيعي والاجتماعي، وما يتصل بهما من مشاعر وأفكار وطنية وقومية.

وفي هذا الإطار نتساءل: من منا ينسى ما قام به الفرنسيون حين احتلوا الجزائر سنة (١٨٣٠م)؟ فقد جهدوا في تحطيم كل ما يمت إلى العروبة والإسلام بصلة، وهذا ما أبرزه (تقرير اللجنة الفرنسية الإفريقية) سنة (١٨٣٣م) ومما ورد فيه: "لقد حطمنا ممتلكات المؤسسات الدينية، وجرّدنا السكان الذين وعدناهم بالاحترام... وبرز بشكل واضح كقاسم مشترك لتطويق الأزمة اللغوية، وما تعرضت له الإيكولوجيا الاجتماعية ـ اللغوية من قهر واضطهاد"[٢]، ولكن صمدت الجزائر وتحررت، وشرعت تعيد البهاء إلى لغتها وثقافتها.

وعليه فإن أثر الأسرة لا يقل قيمة عن أثر الحي، والمسجد والكنيسة؛ وأصحاب القرار في المؤسسات المختصة... وكل منها يخلق الضبط اللغوي الدقيق في إطار التعامل الراقي بين المشتركين في لغة ما... دون اللجوء إلى القسر والإكراه، فالنفس مجبولة على حب من يحسن إليها، وما دخل الرفق في شيء إلا زانه، وما انتزع من شيء إلا شانه... وهذا ينقلنا إلى ضبط السلوك الثقافي والفني في الواقع الرسمي.

---

[١] الجامع الصغير ٣٦٣/١ حديث رقم ٢٦٩٦.

[٢] انظر مثلا: جمعية العلماء المسلمين الجزائريين. وأثرها الإصلاحي في الجزائر ـ أحمد الخطيب ـ المؤسسة الوطنية للكتاب ـ الجزائر ـ ص١٧ ـ ١٨ و٢٥.

٣ ـ ضبط السلوك الثقافي والفني في الواقع الرسمي:

لعل ما يحزننا اليوم ما يحدث للغتنا في الواقع اللغوي الثقافي الرسمي والتربوي والإعلامي والثقافي؛ فقد أخذت نُخب ثقافية عدة تزداد اغتراباً وبُعداً عن اللغة الفصحى، وبخاصة حين بدأت هذه النخب تعمل على الاندماج في المحيط الكوني بحجة الانفتاح على الوسط المحيط والعالم المتحضر وتعلم لغته... ولعل ما تقوم به المؤسسات الإعلامية لشيء أقرب إلى الخيال... فالإعلام بكل صنوفه صحافة وإذاعة وتلفزة يعد من أبرز الوسائل المكونة للغة الكبير قبل الصغير، وإثراء مفرداته وتراكيبه وأساليبه. فأثر الإعلام لا يقل قيمة عما تقوم به المؤسسات التربوية والتعليمية والثقافية والأدبية و... على اعتبار أن الإعلام ـ ولا سيما التلفاز ـ يوفر مغريات شتى لجذب الناس وبخاصة الأطفال في البرامج المختلفة، وهي مغريات ربما يزيد تأثيرها على تأثير مقدم البرامج الذي يمتلك مهارة التصرف وبراعة الثقافة...

ومن يتأمل وظيفة البرامج ومادتها التي تقدم للمشاهد يدرك أنها مادة للتسلية وتزجية الفراغ من جهة، ووسيلة إلى تهديم اللغة من جهة أخرى، لأن الطفل غدا متلقياً سلبياً لها؛ ما أوصله إلى العجز في النطق، وكأننا نسينا ما قاله سقراط لجليسه: تكلم حتى أراك. أما ما يتعلق بأداء المذيعين ـ وغالباً ما يكونون معدين لتلك البرامج ـ فهو أمر يدعو إلى العجب، سواءً ما يتصل بأداء الأصوات والحروف، أم باستعمال لهجات عامية إلى جانب ألفاظ أجنبية... نحن لا نريد أن نقوم بدعاية لبرنامج (افتح ياسمسم)، لكننا صرنا نتذكره بمزيد من الحسرة والألم. فغياب مثل هذا البرنامج الذي قام بدور فاعل في تعليم اللغة العربية الجميلة يدعونا إلى القول: كأن هناك خطة مدروسة لتخريب العربية وتهديمها من قبل بعض العاجزين والمنهزمين داخلياً؛ وقد تناسوا ما يفعله البريطانيون أو الفرنسيون أو اليابانيون أو الصهاينة نحو لغتهم.

وفي هذا المقام لا يمكننا أن نغفل أثر (الدراما) في نفوس الناس؛ فكتاب الدراما، ثم مخرجوها بدؤوا يميلون إلى اللهجات المحلية والابتعاد عن الفصحى، بحجة أن هذه

اللهجات أقرب إلى الواقع المعيش؛ ما شجع كثيراً من المشتغلين في الإعلام على التكلم بالعامية، بل بخليط من اللهجات؛ ما يعني أنهم يحطمون العربية بأيديهم وفق حجج لا سند لها من المنطق والموضوعية... وأول ما يدحض هذه المزاعم أن العامل أو الفلاح أو أي عامي ـ لاحظٌ له من الثقافة ـ قادر على فهم كل ما تبثه نشرات الأخبار التي تعتمد الفُصحى، فضلاً عن فهمه للنص القرآني الذي يعد رأساً للفصاحة. وتؤكد التجربة الحية لتطور العاميات المحلية اقترابها من الفصحى؛ وفق المبدأ المشهور (البقاء للأصلح)... علماً أن المشكلة لم تعد في بعض المحطات الفضائية تقتصر على شيوع لهجة عامية واحدة؛ بل صرنا نجد عدداً من اللهجات المتخالفة، علاوة على إدخال ألفاظ لا حصر لها من لغات شتى، وفي سياق غير سليم؛ ونظام لغوي فاسد... وهنا نتساءل: هل الأزمة في مقدمي برامج هذه المحطة أو تلك أم في القائمين عليها؛ أم في ضعف الرقابة الاجتماعية؛ وغياب محاسبة المجتمع والدولة لها؟... أي لم تعد الإشكالية في التسامح في هذا الجانب اللغوي أو ذاك وإنما تجاوز الأمر إلى الإخلال في مبادئ اللغة ونظامها، مما بدأ يسهم في تدمير اللغة، ثم تفتيت وحدة الأمة... وهذا لاينسينا الإشارة إلى أثر الأغاني الهابطة في إشاعة الأساليب الخارجة على النظام اللغوي ـ وما أكثرها ـ ... مما يثبت غياب التوازن في السياسة اللغوية، فضلاً عن غياب السياسة الواضحة في الانفتاح على ثقافة الآخر ولغته... فالذي يجري بين ظهرانينا هو أن ثقافتنا صارت ـ غالباً ـ مستنسخة تابعة لثقافة الآخر ولكل ما يأتي منها، اللهم إذا أغفلنا التأثر بلغة العمالة الوافدة إلى أرضنا؛ إذ إن لغة الأعداد الوفيرة والمتنوعة للعمالة المستقدمة أنتجت صراعاً لغوياً عجيباً طال الفصحى والعامية على السواء[1]. ونرى أن مثل هذه الحالات سيؤدي إلى نشوء لغة غريبة تغاير لغة العرب، لأن الأوعية الاجتماعية والثقافية قد تفسخت في ظل غياب الوعي اللغوي الوطني والقومي، أو

---

[1] راجع ما تقدم ص ٥٤ وما بعدها و ٩١.

في ظل اللامبالاة التي أخذت تشيع في نفوس الناس، مع العلم أن عدداً من العرب أنفسهم يتخذون اليوم اللغة الإنكليزية أو الفرنسية لغة لهم بدل العربية ... محتجين بأنها لغة المعرفة والعلم والتقنية، بل يرى قسم كبير منهم أن اللغة العربية عاجزة ضعيفة، صعبة، ويكيلون لها التهم الكثيرة الأخرى. فهم يعلنون عداءهم المباشر للغتهم التي تعد أهم عنصر جامع لأمتهم، ويضربون بعرض الحائط كل الدعوات الخيرة للحفاظ عليها من قبل هيئات عدة، وفي طليعتها المجامع اللغوية ومنظمة (أليكسو) في الجامعة العربية. فتلك الهيئات آمنت بقدرة اللغة العربية على توحيد الأمة مهما تعرضت له من نظم الاعتداء والاستنساخ؛ علماً بأن اللغة العربية عُدَّت إحدى اللغات الرسمية لهيئة الأمم المتحدة في الدورة (٢٨) للجمعية العامة، إثر طلب من وزراء الخارجية العرب تقدموا به إلى الأمين العام للأمم المتحدة في (١٩٧٣/١٢/٢٦م) ... ولكن تداول الوثائق بهذه اللغة لم يكن ملبياً للغرض؛ وقد احتجت الأمم المتحدة بأن الدول العربية لا تقدم التمويل اللازم لذلك. ...

ولذلك كله لم يبقَ الأمر مقتصراً على انسحاب اللغة الفصحى من ألسنة العامة في البيت والحي والمدرسة، إذ أضحى أحدهم عاجزاً عن النطق بها؛ وإنما تدهورت حالة الفصحى لدى الخاصة لتصبح لغة ثانية أو ثالثة؛ اللهم إذا كانوا يستعملونها الاستعمال الصحيح... فلغتهم غدت هجينة كهجنة حياتهم، وهشاشة انتمائهم.

وقد التقطت ثقافة العولمة/ الأمركة هذه الحالة المَرضيَّة في بعض أبناء الأمة وسخّرتها لكل ما يلبي أغراضها في جعل اللغة الإنكليزية لغة الوطن العربي، بل العالم كله؛ مستفيدة من التقدم العلمي والإعلامي والتقني الذي أحرزته الولايات المتحدة الأمريكية لفرض إرادتها ومصطلحاتها ونتاجاتها المتعددة على غيرها من اللغات... ما أدى ببعض الدول الأوربية إلى اتخاذ الإجراءات المناسبة للحفاظ على لغاتها كما فعلته فرنسا، وإسبانيا؛ على حين قامت دول أخرى بجهود حثيثة لبعث لغتها إلى الحياة مثل اليابان والصين. ولا

شيء أدل على ذلك مما قام به (خوسيه لويس رودريغيث ثاباتيرو) بعد انتخابه رئيساً لوزراء إسبانيا في (١٤/٣/٢٠٠٤م) إذ جمع أعضاء البرلمان، وحثهم على استخدام اللغة الإسبانية. ولما أراد ممثلو إقليم (قطلونيا) استخدام لغتهم المحلية منعهم رئيس البرلمان الإسباني (مانويل مارين) استجابة لتوجيه رئيس الوزراء، وحرصاً منه على ما جاء في دستور البلاد بمادته الثالثة التي تنص على أن اللغة الإسبانية هي اللغة الرسمية. أما الزعيم الفيتنامي (هوشي مينه) فقد أوصى شعبه قائلاً: " حافظوا على صفاء لغتكم كما تحافظون على صفاء عيونكم، حذار من أن تستعملوا كلمة أجنبية في مكان بإمكانكم أن تستعملوا فيه كلمة فيتنامية"...

أما ما يحدث عند العرب فهو العجب العجاب، فكل الشعوب تعتز بلغتها وترى أن اللغة وطن، أما نحن فقد طفق كثير منا يقتلون لغتهم، وما يدرون أنهم يقتلون هويتهم بل أنفسهم في نهاية المطاف بحجة تبني العولمة الثقافية والأدبية والنقدية واللغوية و[1]... ولم يدر أمثال هؤلاء أن مركزية ثقافة العولمة، وأحادية اللغة التي تتبناها سيكون لها الغلبة على غيرها لينتهي الأمر إلى تدجين اللغة العربية بكثير من المصطلحات والألفاظ والتراكيب والأساليب، ومن ثم ذوبانها في لغة العولمة التي تصر على أن تكون الوسيط القوي بين الذات الفردية والذات الكونية، وتجهد لكي تصبح سلطة موضوعية ومادية على الناس متخطية بهذا الذات الوطنية والقومية ... ولا شيء أدل على ما نذهب إليه مما حدث في بلاد المغرب العربي حين ظن بعض أصحاب الحداثة أن اللغة الفرنسية تلبي حاجاتهم وحياتهم وثقافتهم، فانتهوا إلى فضاءاتها وكادوا ينسون لغتهم الأم... بل طفق قسم منهم يتطلع إلى العيش خارج حدود أوطانهم حين تمكنت فضاءات الثقافة الفرنسية من أنفسهم. وكأنهم نسوا التجربة الفرنسة في كندا، فكل من انتقل إليها من الفرنسيين حافظ على لغته، حتى

---

[1] راجع ما تقدم ٧٢ وما بعدها وانظر مشروع القومية العربية إلى أين ـ القسم الثاني: الهوية العربية وثقافة العولمة ١٠٥ وما بعدها..

صارت الفرنسية في كندا لغة رسمية، بعكس العرب الذين انتقلوا إليها وإلى غيرها فقد تخلوا عن لغتهم العربية لحساب غيرها، وشتان بين التحوّل المتغير، وبين الثابت الأصيل.

ولعل ذلك كله يثبت أن مهمة النوادي الاجتماعية والجمعيّات الثقافية تعادل في قيمتها مهمة المؤسسات الرسمية للحفاظ على اللغة العربية وتوحيد خطابها، وتقريبها إلى أذواق العامة.

وعلينا أن نعترف بأن تأثير المؤسسات التربوية والعلمية والثقافية قد تراجع كثيراً عما كان عليه في عصر النهضة. فالحصيلة اللغوية للفرد أخذت تتلاشى؛ والأساليب البلاغية والأدبية طفقت تضعف، بل لنقل: لم يعد كثير من الناس يحسنون الكتابة بلغة عربية فصيحة، ولاسيما حين ظهرت البرامج التعليمية والإعلامية التي تعزز مفهوم القطعية اللغوية في الكتابة والمحادثة... كما هو حادث في امتحانات (إملاء الفراغ؛ وقيام الحاسوب بالتصحيح)، فكلاهما مأساة كبرى في ابتعاد الطلبة عن التعبير والمناقشة، ويظن القائمون عليها أنهم يحسنون صنعاً.

ولعل ما يثير الفزع أن حركة الترجمة غير المنظمة، فضلاً عن الترجمات الضعيفة قد أدت ـ هي الأخرى ـ إلى شيوع البلبلة اللغوية على الرغم من وجود مكتب للتعريب في الرباط، ووجود أقسام للترجمة في الجامعات العربية، ووجود جمعيات أهلية تعنى بالترجمة، وغير ذلك من الجهات والمؤسسات التعليمية. فهناك غياب حقيقي لسياسة لغوية استراتيجية وطنية وعربية موحدة للترجمة والتعريب بين الجهات المعنية من جهة؛ وعدم الاكتراث بتوحيد المصطلحات من جهة أخرى إذا أهملنا مواقف بعض الأفراد والهيئات التي تذهب في اتجاهات شتى في مجال ترجمة المصطلح، سواء ارتبطت بأولئك المناوئين لأي تعديل في البنية الصرفية والاشتقاقية للمفردة العربية المقابلة للمفردة الأجنبية، أم بأولئك الذين يرون أن أي بنية للمفردة العربية مهما كانت قدرتها لا تستطيع تحمّل دلالة المفردة الأجنبية، وبخاصة ما يتعلق منها بالمصطلحات العلمية والتقنية

والفيزيائية و... وهذا يثبت وجود إشكاليات كبرى في الثوابت والمتغيرات بين ثقافة اللغة العربية وثقافة أي لغة أخرى. أي إن الإشكال المعرفي ـ اللغوي ينتج إشكالاً في المفاهيم والمصطلحات ما لم يتمكن العرب من تسخير قدراتهم لزيادة معارفهم وإتقان لغتهم وفق أساليبها، وأبعادها الدلالية بمثل معرفتهم للغة الأخرى واستيعاب ثقافتها وأساليبها، فضلاً عن جملة من القضايا الأخرى. ولهذا كله فتحت الترجمة الباب على مصراعيه أمام من هبَّ ودبَّ للاتجار بالترجمة، وإدخال مفردات وأساليب كثيرة لم يكن المجتمع بحاجة إليها لوجود نظائرها لديه.

ولو أردنا أن نتعقب كل ما يقال في هذا الشأن لضاق المجال بنا، وحسبنا ما أشرنا إليه لننتقل إلى الفقرة الآتية:

القسم الثاني: تجليات الوعي اللغوي:

أ ـ وعي المشكلة اللغوية:

أشرنا غير مرة[1] إلى أن بعض الجامعات العربية تدرِّس أغلب موادها بالإنكليزية، فضلاً عن أن بعض الدوائر الرسمية في بعض البلاد العربية جعلتها لغة المراسلات؛ والوثائق الرسمية. أما الشركات الخاصة، وبخاصة ذات الطابع العلمي والتقني فقد تخلت ـ غالباً ـ عن العربية، وتبنت الإنكليزية. ولهذا من يدقق في حياتنا الفكرية والثقافية واللغوية... يقرّ بكثير من الإشكاليات، والأمراض، فهناك ضعف ملموس في العربية نطقاً وكتابة، وهناك تراجع في المردود اللغوي مفردات وأساليب وهناك عدول مقصود عن استعمال اللغة العربية لدى عدد من الفئات، وكأن الوضع الاجتماعي اللغوي لم يعد يلبي الأهداف الموضوعة للمجتمع اللغوي إذ سيطرت عليه الأنساق اللغوية والفكرية والفنية المنقولة من اللغة الإنكليزية وغيرها على اعتبار أن اللغة العربية ليست صالحة لسوق العمل، أو للتدريس في الجامعات؛ نظراً لأن العرب غير منتجين للمعرفة والتقنية والمصطلحات والمفاهيم...

---

(1) راجع ص ٥٥ مما تقدم.

ولعل الأخطر من ذلك أن تشيع اللغة الإنكليزية بحكم الواقع الاقتصادي والتقني والإعلامي والثقافي والسياسي لتصبح لغة الحياة والثقافة والمعرفة والعلم والإعلام والفن و... على كل صعيد وفي كل مجال وميدان، وهو ما نشاهده في بعض البلدان؛ فمن لا يتقن الإنكليزية ليس له عمل؛ علماً بأن كثيراً من الجامعات الخاصة جعلت الإنكليزية لغتها الرسمية وتخلت عن العربية؛ بما فيها بعض جامعات مصر وسورية. فضلاً عن أن هناك مدارس وجامعات أجنبية تدعو للغتها وثقافتها، وتهيئ المنح لمن يدرس في بلدانها.

وبهذا كله فقد دخل لغتنا أشكال لغوية أكدت تراجع الوعي بقيمتها الفنية والأدبية والعلمية والاجتماعية والوطنية، والقومية، مما يهدد الوجود الثقافي والفكري و...لأمتنا برمتها.

ب ـ عناصر موضوعية لتجاوز المشكلة:

يدفعنا هذا العنوان إلى التساؤل: هل العجز حقاً في اللغة العربية أم في أصحابها؟ وما العناصر الموضوعية المؤهلة لبقاء اللغة؟ هذا ما سوف نشير إليه في كلمات سريعة مبتدئين بالنص القرآني باعتباره نصاً لغوياً عربياً، لقوله تعالى: [كتاب فُصّلت آياته قرآناً عربياً لقوم يعلمون] (فصلت/٣).

١ ـ النص القرآني:

النص القرآني نمط لغوي خاص ـ من دون مراء ـ، ثم إن الوعي بهذه الحقيقة لا ينفصل عن الوعي بقداسته، فهو كلام الله المنزل على محمد بن عبد الله، وهو لايزال حافظاً لغة العرب، وحارساً لها، ومانعاً إياها من الاندثار والتشويه والضياع... وعلى الرغم من ذلك كله فهناك تقصير ملموس في إدراك كنهه اللغوي؛ علماً بأنه نزل من لدن حكيم خبير؛ ليدرسه الناس ويطبقوا تعاليمه... شرط فهمه واستيعابه... دون أن ننسى الإشارة إلى أن اللغة تفسر باللغة بوساطة الأدلة النقلية والعقلية. وهنا نسأل أنفسنا مرة أخرى: هل فهمنا حقاً ما يعني التراكم التاريخي والثقافي والسياسي والاجتماعي والديني للغتنا العربية؟.فاللغة العربية حافظة للتراث المكتوب فيها، ما يجعلها صلة الوصل بيننا وبين الدول الإسلامية،

فتراثها تراثنا، وفق ما تثبته المخطوطات المشتركة لثقافتنا الواحدة. وحينما تتخلى أي دولة عن اللغة العربية فإنها ستتخلى عن جزء هام من تاريخها، كما حدث مع مَنْ استبدل اللغة الأجنبية بالعربية.

٢ ـ ثراء أساليب العربية:

لعل غنى العربية بالأساليب واتصافها بجماليات خاصة[1]، فضلاً عن جماليات البنية والوظيفة في التعبير والتصوير ليس له نظير في اللغات الأخرى، ما يجعلنا نتساءل: هل أفدنا حقيقة من جماليات هذه اللغة وأدركنا أبعادها الروحية والدلالية وأبعاد وظائفها المستسرة؟ وما حجم ما نستعمله، ونطوره من أساليب اللغة العربية، ومفرداتها وفق بناها ومعاييرها التي عرفنا شيئاً منها؟ هل ترقى خبراتنا اللغوية إلى نصف ما كانت عليه خبرات أجدادنا على الرغم من التفجر المعرفي والعلمي والتقني والإعلامي من حولنا؟.

وأنا لا أريد أن أقوم بجلد الذات، ولكن أتساءل: كم باحث منا قادر على استيعاب جمالية أسرار حروف العربية، وربطها بدلالتها النفسية والطبيعية والاجتماعية؟ لنأخذ حرف (الغين) مثلاً؛ ولنسأل: ما المعنى المشترك الذي يدور فيه وإن تعدد استعماله في كلمات شتى؟. هل يدرك كثير منا أن المعنى المشترك فيه أينما ورد يشي بدلالته على الخفاء والغياب؟.

ثم من منا يدرك دلالات أسلوب الالتفات، أو التكرار على سبيل المثال كما يفرضه واجب المعرفة اللغوية؟... فالظاهر للعيان أننا نحفظ الإطار النظري لكل أسلوب، ولكننا حين نأتي إلى التطبيق نعجز عن إدراك كنهه في السياق اللغوي لأي نص من النصوص... لتؤول النتيجة إلى التوتر والاضطراب وكل ما يثير الأذى في النفس...

٣ ـ نظام العربية:

هو نظام دقيق، واضح، وسهل؛ فلو رجع كل منا إلى قراءة لغوية نصية متأنية ومتواصلة؛ ومن ثم عاش اللغة

---

(1) انظر دراسات في العربية وتاريخها ١٣٦ ـ ١٤٨.

ظاهرة بنيوية ولسانية موازية لوظيفة اجتماعية وثقافية وتربوية وعلمية ودينية وإعلامية حقيقية... لا ظاهرة صرع وتهريج؛ وخداع... لاستطاع أن ينعم بالوعي اللغوي، والقدرة على متابعة كل تطور وتغيير مهما صغر أو كبر... فالنظام اللغوي للغة العربية[1] نظام على غاية من الدقة والوضوح لمن أدرك أسرار معانيه؛ وسياقاته المتعددة... وهو ـ من دون شك ـ نظام صعب على أولئك العاجزين الذين صمّوا آذانهم دونه، وغشوا عيونهم عن وظائفه الوطنية والقومية والدينية والفنية والأدبية لكنه لا يبلغ تعقيد نظام اللغة الإنكليزية التي غدت اللغة الأولى في عالم اليوم. ففي اللغة الإنكليزية ـ مثلاً ـ يوجد حالات عدة لتصريف الفعل، وهي حالات قد تتشابك مع حالات أخرى تزداد تعقيداً. فلا بد من معالجة صيغة الفعل المبني للمجهول حين يدخل المتكلم فعل الكون وأشكاله (Verb to be و am و Was و Were) أو فعل التملك وأشكاله (Verb to be و have و has و had).

ويظل هذا النظام أصعب بكثير من صيغ الفعل المحدودة في العربية وهي الماضي والحاضر والمستقبل. وكذلك يقال في الحالات الإعرابية ففي الإنكليزية حالة خاصة لكل حالة إعرابية، بينما يوجد في العربية أربع حالات هي الرفع والنصب والجر والجزم، وفروعها تنطلق منها ... ومهما يكن فأي لغة إنما تمارس في أطرها المرجعية وتنمو وتتطور نتيجة الممارسة الجادة والصادقة في كل شأن من الشؤون...

ج ـ عناصر إنسانية لتجاوز المشكلة:

بين صمت الحواس وسكون الحرف تقبع عوالم لا متناهية من الحركة والفعل والإبداع والتأثير و... وما يزال التاريخ يُثبت أن عالم اللغة أو الكتابة يملك خصوصية فريدة في الزمان والمكان بما ينطوي عليه من مفهوم التعبير الفكري والجمالي والعاطفي عن الروابط الإنسانية وقيمها الأصيلة.

فعالم اللغة يرفّ على جناح العاطفة الجيّاشة والمشاعر المرهفة التي تغمر النّفس بالسعادة والطمأنينة والفرح والعمل

---

[1] راجع الفصل الأول ٤٣ ـ ٤٧.

والألفة لتنتشلها من الحزن واليأس والوحدة والعزلة والقلق والإحباط في إطار ما ترسيه القدوة الحسنة؛ وما تتميز به أساليبها، وفق ما يأتي...

١ ـ القدوة الحسنة:

يبقى للقدوة الحسنة الأثر الأعظم في إتقان اللغة، إذ لا يستقيم الظل والعود أعوج. فالآباء والأساتذة الذين يحسنون الحديث باللغة الفصحى يتركون أحسن التأثير في الأطفال والتلاميذ، فتربية اللغة كتربية النفس، تتهذب وتثرى، وتستوي مقوماتها إذا وجدت المناخ الإيجابي الصحيح والمثير، وفقاً لقول الشاعر:

وتشبهوا إن لم تكونوا مثلهم إن التشبه بالكرام فلاح

وعليه فإن الخطاب اللغوي يعيد تشكيل ذاته بشكل نفعي عاجل، ما يعني أن الوظيفة النفعية الأولى للغة تتحدد بما ينتجه التشبه بالقدوة الحسنة من حب اللغة وإتقانها، وإلا انتهى الأمر إلى العكس؛ فشاعت كراهية اللغة، وتراجعت حصيلتها؛ وكم من أساتذةٍ نفروا طلبتهم من لغتهم نتيجة مواقفهم وأساليبهم غير اللائقة.

ولما أثبتنا مفهوم التكامل في القدوة الحسنة، فإنه لا يجوز أن تكون هذه القدوة الحسنة قاصرة على بعض الأفراد أو بعض الأساتذة، فاللغة مرتبطة بالجماعة كلها... وعلى أبنائها جميعاً اتباع أساليب ترغيب ناجعة لتصبح اللغة لغة الحياة والأدب والعلم.

٢ ـ أساليب الترغيب:

حينما أشرنا غير مرَّة إلى عدد من المؤسسات الاجتماعية والفكرية والتربوية فإننا تيقنا بأن الطفل ـ من دون شك ـ ينصاع لمن هو أكبر منه ولكنه يصبح أكثر تأثراً بمن يعجب به ويحبه، ما يعني أن أساليب الإكراه والعقاب البدني لتعلم اللغة قد لا تؤدي الغاية المرجوة منها... ولهذا تعدُّ أساليب الترغيب في تربية اللغة وتنميتها أهم بكثير من أساليب الترهيب، ولكل منها موقعه...

فاللغة جزء لا يتجزأ من التكوين الاجتماعي الأخلاقي النابض بالخير؛ النافر من الشر أياً كان نوعه تحقيراً، وسخرية، وتوبيخاً، أم إذلالاً وقهراً مادياً ومعنوياً. وهنا تكمن حقيقة التربية اللغوية الصحيحة، قراءة وتدرباً، وتغذية راجعة، للوصول إلى مقاربة لغوية سليمة تصل المتلقي بالمقروء أو المكتوب في إطار الحقول اللسانية والمعرفية الواعية لقيمة اللغة العربية باعتبارها النسق الدلالي العظيم في حياة العرب أدباً وفناً وعقيدة ...

ولهذا حين ننتقل إلى المجال الأدبي فهناك فساد في الذائقة الأدبية لدى عدد غير قليل من الأدباء الذين يزعمون أنهم ينتجون نصوصاً إبداعية، بينما هم يخربون بها كل شكل جميل للأدب ولغته... وليس هناك من ينكر قيمة النصوص الأدبية البديعة في الارتقاء بلغة الإنسان، وتنمية أساليبه، ما يجعل الأدباء المبدعين يتحملون مسؤولية كبرى في تعزيز الذائقة اللغوية؛ وهي مسؤولية لا تقل عن أثر المعلمين في تدريب الطلبة على حفظ هذه النصوص وتقليدها، للوصول بهم إلى مرحلة الإبداع والابتكار. فالنصوص الأدبية والنقدية واللغوية السليمة والجميلة جزء من الذائقة المرهفة والوحدة الذهنية والفنية والفكرية لثقافة المجتمع بل الأمة برمتها... وإذا ما انحرفت هذه النصوص عن المنهج الدقيق للغة العربية الفصحى على المستوى الصوتي والصرفي والنحوي والدلالي فإنها ستسهم هي الأخرى بتدمير الوعي الاجتماعي للغة؛ وستنتج إشكاليات من نوع جديد؛ إذا لم نقل: إن هذه الإشكاليات قابعة بيننا لكثرة وجود النصوص الهابطة لغوياً وفنياً، ويحسب أصحابها أنهم يحسنون صنعاً.

وهذا ينقلنا إلى الإجراءات الواجب اتخاذها في هذا الشأن.

٣ ـ الإجراءات المتوخاة:

ليس هناك من يماري في أن السلوك الاجتماعي والثقافي واللغوي مرتبط بالوعي الاجتماعي والمعرفي والعلمي واللغوي و... في الأسرة والحي ودور العبادة ورياض الأطفال والمدارس والجامعات و...، وهو وعي مرتبط بالضبط الرسمي للأفراد عامة وللمسؤولين خاصة ولاسيما

القائمين على المؤسسات الفكرية والتربوية والثقافية والإعلامية و... فخلق الوعي اللغوي يحافظ على كينونة الفرد وهويته، ومن ثم يحقق جوهر مكونات الأمة وخصائصها. فالمؤسسات الرسمية مسؤولة عن بذل الجهود الحثيثة للحفاظ علي اللغة أولاً، وجعلها لغة الحياة والأدب والفن والثقافة ثانياً. وعليها أن تخلق الشروط الموضوعية لضبط الوعي في استعمال اللغة القومية الاستعمال السليم... وعليها أن تقوم بكل ما يخدم اللغة الفصحى لتغدو جزءاً من الذات الفردية والجمعية في الوسط المعيش....

وليس هناك شك في أن اللغة العربية تتطور بتطور أهلها، وإدراكهم لقيمة طبيعتها ووظيفتها، وعلي كل المعنيين باللغة ابتداع وسائل عدة للنهوض باللغة العربية، واستغلال التقنيات الحديثة لمعالجة الانحراف الذي أصيبت به، لا زيادته وتعميقه. فهناك إعراض عن استخدام اللغة العربية من الخاصة قبل العامة، وهو إعراض وصل إلى المؤسسات التعليمية، ولسان المعلمين والأساتذة الذين نسوا ما تقوم به الجامعات البريطانية والأمريكية في الحفاظ على اللغة الإنكليزية... فأساتذة جامعاتنا صاروا أحرص على الإنكليزية من العربية؛ بل ربما وجدنا بعض جامعاتنا تتخلى عن العناية بأقسام اللغة العربية لصالح غيرها بحجة أن سوق العمل لا يتطلب مدرسين للعربية و... وقد وصل الأمر في بعض الجامعات العربية إلى أن تطلب مدرسين باللغة الإنكليزية في كليات الآداب، ما أدى إلى قصور في التعبير، وعجز في الأداء، وأخطاء في الحديث والكتابة، ومن ثم أدى إلى عزوف في الحي والشركات والمؤسسات عن استعمال العربية، وكذلك في الإعلانات والوثائق؛ فضلاً عن الانحراف في الإعلام... أما القراءة الحرة فقد غدت في علم الغيب، وكذلك هو التعلُّم الذاتي الذي انحسر انحساراً كبيراً.

فالخطر المحدق باللغة الفصحى يهدد وحدة الأمة، ولا مخرج لها إلا بتنفيذ سياسة استراتيجية لغوية عربية متكاملة تعنى بالصرف والنحو والبلاغة، والنصوص الأدبية والنقدية؛ وتتبنى سياسة موحدة للبرامج والمناهج اللغوية، وتعنى

بالأساتذة والإعلاميين والوسط الاجتماعي والثقافي مع الانفتاح على تجارب الآخر وثقافته ولغته، والإفادة من الإعلام والتقنيات الحديثة؛ واستخدامها الاستخدام العلمي والموضوعي والأخلاقي. فما يقع في بعض الفضائيات الناطقة بالعربية أمر يدعو إلى الرعب...

وقد قامت سورية باتباع سياسة لغوية قويمة وقديمة منذ افتتاح المعهد الطبي العربي ومعهد الحقوق سنة (١٩١٩م) اللذين كانا الأساس للجامعة السورية، وكان الأساتذة لا يعينون في عضوية هيئة التدريس إلا إذا كانوا يتقنون العربية. وإذا كان هذا القرار ما زال يعمل به، فإنه قد فقد فاعليته لعدم العمل بمضمونه؛ علماً بأن تجربة تدريس الطب والعلوم بالعربية كانت ناجحة في سورية حين توافر لها أساتذة أكفياء في اللغة العربية والمادة العلمية المتخصصة، وفق ما اعترف به (بونور) مدير المعارف في المفوضية العليا للانتداب الفرنسي آنذاك إذ قال: "لستم مخطئين في اختياركم اللغة العربية للتدريس، بل كونوا واثقين أنكم أحسنتم صنعاً بانتقائها، فإن من يزعمون أن اللغة العربية للتدريس، بل كونوا واثقين أنكم أحسنتم صنعاً بانتقائها، فإن من يزعمون أن اللغة العربية غير صالحة للتعبير عن مصطلحات العلم الحاضر هم على خطأ مبين، فالتاريخ يثبت أن لغة الضاد كسائر اللغات الأخرى غنية باشتقاقها وكافية بكثرة تراكيبها للتعبير عن الأفكار الجديدة والارتباطات الحديثة التي تربط تلك الأفكار، وإن فلاسفة العرب حينما نقلوا في القرن التاسع إلى لغتهم رسائل أرسطوطاليس تمكنوا من نقل العلوم إلى لغتهم كما في عهد ابن سينا والغزالي وابن رشد، فما ينكر أحد والحال هذه أن اللغة العربية صالحة لمماشاة اللغات الأخرى وللتعبير عن الأفكار العلمية الحديثة. واعلموا أن اندفاعكم إلى إيجاد مؤسسة علمية كبيرة عربية اللسان هو على ما أرى أكبر دليل على حذاقتكم فظلوا محافظين على هذه الأداة البديعة التي نحن مدينون لها بكثير من الأعمال الباهرة وبعدد من الأشكال الجميلة التي تجلى بها الفكر البشري".

ويتابع قائلاً: "إنني أهنئ العرب وأتمنى ألا يضيعوا هذا

الاحترام المقدر للغتهم، لأن من يدافع عن لغته يدافع عن أصله وعن حقه وعن كيانه وعن لحمه ودمه وإنكم تفهمتم هذا الأمر جيداً".

ولقد تكاملت الدراسات العلمية والدراسات الإنسانية والأدبية باللغة العربية منذ ذلك الوقت وإلى يومنا هذا، وشمل التعريب مختلف التخصصات، وغدت سورية قلعة للتعريب والذود عن العربية والحرص على سيرورتها وانتشارها نقية وسليمة على الألسنة والأقلام، وفي جميع مناحي الحياة، وصارت مضرب المثل على نطاق الساحة العربية في تمسكها بلغتها الأم والحفاظ عليها، وكان المجمع العلمي العربي في دمشق «مجمع اللغة العربية اليوم» مرجعاً للدوائر الحكومية في مسيرة التعريب وفي كل ما من شأنه تعزيز اللغة العربية.

"وصدر المرسوم التشريعي ذو الرقم /١٣٩/ تاريخ ١٩٥٢/١١/٦ يعزز استخدام اللغة العربية في البيئة وذلك بمنع إطلاق الأسماء الأعجمية على المحال العامة والخاصة، كما صدر بتاريخ ١٩٧٠/٥/٧ بلاغ رئاسة مجلس الوزراء رقم ٩٥/ب/١٧٠٩/٥ للحد من طغيان الأسماء الأجنبية على المحال العامة والخاصة، وصدر أيضاً كتاب من رئاسة مجلس الوزراء إلى الجهات المعنية رقم ٢٧٢١/١ تاريخ ١٩٨٠/٥/٢٨ يتضمن الموافقة على توصية اللجنة الثقافية المتخذة في جلستها المنعقدة بتاريخ ١٩٨٠/٣/٤ حول تعريب أسماء المحلات القائمة في البلاد، ونصت المادة الثالثة من قرار وزير السياحة رقم /٣٩٧/ لعام ١٩٨٠ على أن تختار المكاتب والمنشآت السياحية على اختلاف درجاتها وفئاتها في التصنيف أو التأهيل أسماء عربية فقط، وتتخذ أصولاً بعد موافقة الوزارة عليها، ويحظر عليها استخدام أسماء أجنبية، واستثنى القرار المنشآت السياحية الأجنبية ذات المستوى والتصنيف الدوليين والخاضعة لأنظمة الوزارة والمرتبطة بها بموجب العقود المبرمة معها.

وعلى الرغم من هذا الحرص لوحظ أن ثمة انحداراً في المستوى اللغوي في مضمار تعليم اللغة العربية وتعلمها إنْ في التعليم العام أو في التعليم الجامعي لدى طلبة الجامعات

والمعاهد وفي مختلف الاختصاصات، فصدر المرسوم الجمهوري ذو الرقم /٧٥٩/ تاريخ ١٩٨٣/٦/١٠ ينص على تدريس اللغة العربية في المرحلة الجامعية الأولى في جميع سنوات الدراسة في الكليات والمعاهد العليا في الجمهورية العربية السورية فيما عدا قسمي اللغة العربية والسنة الأخيرة في كلية الطب البشري، ويدرَّس هذا المقرر على مدار السنة في النظامين الدارسيين الفصلي والسنوي، وألفت الكتب الخاصة بتعليم اللغة العربية لغير المختصين، وبدأ تنفيذ التجربة منذ الثمانينيات في القرن الماضي.

ولم تقتصر إجراءات النهوض بالمستوى اللغوي على الطلبة فقط، وإنما امتدت إلى أعضاء الهيئة التدريسية، إذ أوصت اللجنة الثقافية في رئاسة مجلس الوزراء بضرورة العناية باللغة العربية في جميع الكليات واختيار المعيدين وأعضاء الهيئة التدريسية من الذين يحسنون اللغة العربية في التدريس"[١].

هذا ما كان من الإجراءات العديدة التي قامت بها سورية؛ وعلى الرغم من أن اللغة العربية، محادثة وكتابة، أوفر حالاً وأقل خطأً فيها من بقية الدول العربية فإنها ترى أن هناك تراجعاً في الوعي اللغوي، وقصوراً في الأداء في المنتديات والحوارات والمراسلات والإعلانات والإعلام، بل في المدارس والجامعات... ما أدى إلى استشعار الخوف على هذه اللغة فصدر القرار الجمهوري رقم (٤) تاريخ (٢٠٠٧/١/٢٦م) بتشكيل لجنة التمكين للغة العربية والمحافظة عليها والاهتمام بإتقانها والارتقاء بها...

وفي ضوء ذلك كله نقترح الإجراءات الآتية:

١ ـ تبني استراتيجية صارمة في إلزامية التعليم باللغة الفصحى، وفتح معاهد للقراءة للتخلص من الأمية المنتشرة في

---

[١] النصوص المقبوسة من الصفحة ١١٨ حتى هذه الصفحة مأخوذة من (خطة العمل الوطني لتمكين اللغة العربية) في سورية ـ ونشرت في الأسبوع الأدبي ـ العدد ١٠٨٠ ـ تاريخ ٢٠٠٧/١١/١٧م.

الوطن العربي. فهناك إحصاءات تشير ـ في هذا المجال ـ إلى ما يزيد على (٧٠) مليوناً من الأميين، فضلاً عن وجود عدد مماثل يستصعب القراءة والكتابة. وقد أحسنت وزارة الشؤون الاجتماعية والعمل في سورية بفتح دورات عدة لمحو الأمية، وكذلك سعت مؤسسات أخرى كمؤسسات تحفيظ القرآن في وزارة الأوقاف إلى المساعدة بإحداث دورات لحفظ القرآن، وتعليمه، فضلاً عن تعليم الكتابة في بعض الأحيان.

٢ ـ الابتعاد ـ نهائياً ـ عن استخدام اللهجات العامية، والألفاظ الوافدة من لغات أخرى في معرض المحادثة والكتابة، إلا إذا كانت الحاجة إليها ضرورة ملحة.... والامتناع نهائياً عن نشر أي مادة بالعاميّة أو إذاعتها... وإعلانها... والعمل على تفصيح كل ما هو عامي، وتيسير كل ما هو بعيد عن الاستعمال من الفصحى، وتقريبه إلى الذوق العام؛ والتشديد على منع الإعلانات بالعامية، أو باللغات الأجنبية وحدها.

٣ ـ اتباع سياسة لغوية واضحة وصارمة على كل المستويات والصُّعد الرسمية والشعبية. وهنا تقع مسؤولية كبرى على قرار الدولة الرسمي التوجيهي لتنمية لغوية ثقافية مستدامة وشاملة، واستثمار كل الوسائل المتاحة لذلك؛ فالإصلاح والتطوير لا يقع في اتجاه دون اتجاه.

ومن ثم على الدولة القيام بمراقبة مستوى التنفيذ والأداء والتحقق من كل إجراء يمكن أن نقترحه وفق ما يأتي:

أ ـ إحداث شعبة تدقيق لغوي في المؤسسات والوزارات المختلفة.

ب ـ مراقبة لغة التقنيات المختلفة، ووضع النظم اللغوية القادرة على استيعاب كل ما تنتجه من مفاهيم ومصطلحات، وفق المعايير اللغوية المعمول بها في العربية... وعدم السماح بنشر أي كتاب ألكتروني يسيء إلى الذوق اللغوي، والعبارة الواضحة الدقيقة.

أي علينا الإفادة من التقنيات الحديثة، والقدرة على التعامل معها بإحداث النظم اللغوية المناسبة لها، والمنسجمة مع

أهداف اكتساب المهارات اللغوية... فقوة اللغة من قوة أهلها، وحسن استيعابهم للتقنيات ودلالتها تنبثق من دقة تعاملهم معها. ولعل ما يحدث اليوم في النظام اللغوي العربي لا يغترب عن التفاوت الكبير بين دول الجنوب ودول الشمال، إذ أدى التقدم التقني لدى دول الشمال إلى فرض لغتها وثقافتها على دول الجنوب ما زاد الفجوة بين مجتمعاتها ولغاتها وثقافاتها، ولاسيما على صعيد المفاهيم والمصطلحات. وهنا تقع مسؤولية كبرى على المؤسسات العلمية والأكاديمية والمعلوماتية والثقافية رسمياً وشعبياً لصياغة النظم اللغوية والمصطلحات التي تعزز اللغة العربية، وتصميم هذه النظم بالشكل الذي يتناسب ومتطلبات التقنيات. وهذا ما تقوم به بعض الشركات الوطنية الخاصة التي أثبتت قدرة العربية على التعامل مع التقنيات الحديثة. ثم إن الحاسوب أثبت تفوق العربية على غيرها إذا لقن بشكل جيد الأبجدية العربية ودلالتها علماً بأنها أكثر اللغات اعتماداً على المنطق والاقتصاد اللغوي إذا عرفنا كيف نتعامل مع التراكيب المجازية.

ج ـ اعتماد اللغة العربية في الدراما والمسلسلات والحوارات والندوات والمنتديات، والمحاضرات والمراسلات والبلاغات،... وتقريبها إلى مفهوم العادة عن طريق التكرار والمواظبة... فكل شيء يعتاده المرء يصبح جزءاً أصيلاً فيه.

د ـ إجراء دورات تأهيل لغوية للعاملين في المؤسسات ذات الطابع الإعلامي والثقافي والفكري والتربوي، والتشديد على المحادثة والحوار باللغة الفصحى الميسَّرة والتعبير بها.

هـ ـ تبني برامج ثقافية لغوية سليمة جذابة تتوجه بالحوار والمحادثة إلى الأطفال، لئلا يبقوا سلبيين لا يقدرون على النطق، وتعويدهم على الكتابة بلغة جميلة.. إذ لابد من تغيير العادات القديمة في أنماط البرامج الإعلامية والتربوية.

و ـ تبني وزارة السياحة والاقتصاد والتجارة الداخلية والخارجية لسياسة لغوية في كل شأن يتعلق بالإعلان والترجمة، أما الخارجية فعليها مهمة وطنية مضاعفة في هذا الشأن، فقل أن نجد سفيراً عربياً يتقن لغته، ولغة البلد الذي

يتوجه إليه؛ على حين ندر أن نجد ذلك لدى سفراء الدول الأجنبية في بلادنا.

ز ـ اعتماد معايير لغوية منضبطة في الترجمة تقوم بها مؤسسات ثقافية. وإذا سمح بالترجمة الفردية فلا بد أن تكون بإشراف إحدى تلك المؤسسات والموافقة عليها بعد قراءتها... ومن ثم فالترجمان المحلف ينبغي أن يكون متقناً للغة العربية واللغات التي يُعنى بترجمتها.

وفي هذا الإطار نشير إلى أن العرب يعدون نحو /٣٠٠/ مليون نسمة؛ على حين لا يزيد ما يترجمونه من اللغات الأجنبية على /٤٠٠/ كتاب في السنة، أما إسبانيا التي تعد /٤٠/ مليوناً فهي تترجم سنوياً ما يزيد على عشرة آلاف كتاب. فلنتخيل حجم المشكلة في هذا الاتجاه؟ـ وهنا نتذكر ما تقوم به بعض المؤسسات والدول من القيام بمشاريع الترجمة مثل مشروع (كلمة) في دولة الإمارات العربية المتحدة. وإذا كنا نرى في قلة الكتب المترجمة مشكلة ثقافية وفكرية، من جهة، فإننا نرى أن اللغة التي تترجم بها تعد مشكلة أعظم من جهة أخرى، نظراً لما يقع فيها من أخطاء، وتفاوت لغوي بين المترجمين ما أدى إلى فوضى لغوية، تحتاج إلى ضبط.

٤ ـ إجراء دورات تأهيل لأبناء المجتمع على اختلاف فئاتهم وأعمالهم وأعمارهم، ولاسيما الأمهات والآباء الذين انقطعوا عن التعلم والثقافة... فالعناية بالأسرة عناية بالطفولة المبكرة، فالاستعداد الفطري اللغوي لا ينمو أو يتطور إلا في وسط ملائم... وهذا يدفعنا إلى تمكين (رياض الأطفال) في المجتمع، وإيلائها العناية الكبرى على مستويات عدّة تتعلق باختيار المعلم المؤهل والكفء والقادر على التكيّف مع كل مستوى ثقافي ومع كل مرحلة عمرية وجنسية فما يصلح للعرب لا يصلح للأجانب، وما يصلح للإناث قد لا يصلح للذكور. وكذلك لابد من تبني مناهج مدروسة بعناية فائقة، وضبط مادتها بالشكل الكامل، وإخراجها بصورة جذابة مليئة بالصور الشائقة، ومكتوبة بخط جميل. أما العناية بتأهيل القائمين على دور العبادة (في المساجد والكنائس) فلا يقل أهمية في هذا الشأن، لأن لهم تأثيراً كبيراً في المجتمع، وفي مساعدة الأسرة على صياغة لغة الطفل.

٥ ـ إيلاء المدرسة الابتدائية والإعدادية والثانوية أهمية كبرى، على صعيد المعلّم خاصة، فإذا رغبنا في تحقيق تعليم مفيد فعلينا إيلاء المعلم عنايتنا الكبرى إعداداً، وثقافة، وحاجة... فهو الذي يعدُّ إنسان المستقبل؛ والإنسان غاية الحياة... وكذلك علينا أن نعني بالمناهج، ودراسة وظائفها وأهدافها المناسبة للمرحلة العقلية والعمرية من دون إهمال المكان المريح للنفس والعقل بألوانه وبنائه ومساحته... ودراسة طرائق التدريس التي تلبّي الغايات الموضوعية لها، والابتعاد عن طرائق التلقين واعتماد مبدأ القصة والحوار أو المشاركة، أو المناشط الصفية... واللعب مع الأطفال (العبوا مع الأطفال، علّموهم وتعلّموا منهم)، وتعزيز التغذية الراجعة في كل طريقة من الطرائق. فالمثيرات بأنواعها كلها تشجّع الطفل والطالب على تعليم ذاته باعتبار أن الإنسان شغوف في المعرفة، ويسعى إلى اكتشاف المجهول. ونرى أن هذا الشغف مرتبط بتعليم الإنسان لنفسه وفق مبدأ التغذية الراجعة، وهو مبدأ تثيره الحاجة والاهتمام ما جعل (مونتسري Montessori) ترى " أن الإنسان لا يمكنه أن يتلقى تكوينه من إنسان آخر، وما لايتعلمه من تلقاء نفسه لن يتعلمه أبداً"[١] ومن ثم فإن كل " ما يثير السلوك الذي يعيد التكيف ليس الحاجة كما هي عليه، وليس الاهتمام بوصفه كلاً منفصلاً بذاته؛ ولكنها الحاجة في علاقاتها بالاهتمام مع ما يمكن أن يؤدي إلى إشباعها" [٢].

ومن ثم على المدرس أن يعمل على تطوير الآليات التي تعنى بإشباع الحاجات العقلية والنفسية عند الطلبة، وأن يجعل اللغة حاجة أساسية للتعبير عن ذلك، حتى لا ينصرفوا إلى أشياء أخرى، وعليه أن يكتشف الطريقة المثلى لذلك كله. وعلى كل

---

[١] المدارس الحديثة ـ بول فولكييه- ص ٤٣ ـ ترجمة عبد الله عبد الدايم، وصلاح الدين المنجد، وخالد قوطرش ـ مجلة المعلم العربي ـ العدد السابع والثامن، السنة السادسة ـ أيار/حزيران ١٩٥٣م.

[٢] فن التعليم الوظيفي ـ ميشيل ماندير ـ ص١١٧ ـ ترجمة د. محمد خير الفوال، وعبد الرحمن نجيب، سلسلة رضا للنشر ـ دمشق ـ ٢٠٠٣م.

طريقة أن تتصف بالحيوية والمحبة والتعاون... وتكون قابلة لقياس المهارات اللغوية والعقلية و... على أن تراعي تلك الطرائق اعتماد النصوص الأدبية الجميلة والمثيرة قديمها وحديثها... أو أن تصاغ الحكايات الشعبية بلغة عربية سهلة واضحة شائقة وجذابة ويُفضَّل أن تصاغ على ألسنة الحيوانات وبقية المخلوقات، لإثراء خيال الطفل، أو التلميذ... ويمكن إجراء مسابقات في كل نمط إبداعي، وتقديم الجوائز المجزية للفائزين؛ دون أن يهمل التنويه بالمشاركين الآخرين.

٦ ـ الاستماع الواعي للنصوص القرآنية ونصوص الحديث الشريف وحفظها، وحفظ النصوص الأدبية قديمها وحديثها، وقراءتها القراءة الجهرية الذاتية والجماعية وفق طريقة التسميع، ثم الإلقاء والإنشاد... وتشجيع القراءة الحرة والقراءة التنافسية، والاستماع إلى نشرات الأخبار، والإرشاد إلى كتب تعلّم النفس والعقل؛ وتعزز اللغة الأدبية الجميلة... والتشجيع على تمثلها محادثة وتعبيراً... وتعزيز ذلك بالمكافآت المناسبة. فالخبرات العلمية والثقافية، وفي رأسها المحادثة باللغة العربية وإتقانها يتشكل في إطار تلك النصوص، ما يعني أن تدريس النحو والصرف وفق ما هو معمول به في مدارسنا وجامعاتنا قد أصبح غاية في حدّ ذاتها، فصار من العسير على الطلبة أن يتقنوا بوساطته المهارات اللغوية كتابة ومحادثة. لهذا فالاستماع الواعي للنص، وقراءته ثم فهمه، وحفظ أقسام منه سيؤدي إلى امتلاك المهارة اللغوية، شريطة التدرُّب على التمييز بين المفردات والأساليب أداءً ودلالة؛ في إطار تبديلها في المواقع والعبارات، وبيان جمالياتها في كل مرة؛ فاللغة مادة النص الأدبي، وهو فكرها وروحها.

وهذا ما جعل أجدادنا ينشئون أبناءهم على حب الأدب وروايته، لأنه يعلمهم اللغة والقيم الحميدة و...

٧ـ تبنيّ مفهوم القدوة الحسنة، وفق الحديث الشريف:

«كلكم راع، وكلكم مسؤول عن رعيته» [1]. فالقدوة الحسنة تحبب المتلقين باللغة إذا ملكت ناصيتها، ورغبتهم فيها سلوكاً وأسلوباً، إذ تعزز اللغة في نفوسهم إذا تطابق السلوك والقول... ثم إن البيئة اللغوية السليمة تكسب الأطفال والتلاميذ الملكة اللغوية الأصلية؛ وفق ما عرفناه من البيئات اللغوية عند القدماء من العرب وفي بعض التجارب الحديثة هنا وهناك.

٨ـ تعزيز الثقة بالذات الفردية والجماعية القومية، في ضوء تعزيز الثقة باللغة العربية في الداخل والخارج باعتبارها وعاء للثقافة والتراث، ورمزاً للوجود والهوية، وتمثل التجارب العديدة لدى الأمم المختلفة لتكون درساً لنا، كما حصل في تجربة تركيا التي تخلت عن الحرف العربي في الكتابة، ما جعل أبناءها يبتعدون عن اللغة العربية، على حين تمسكت إيران بالحرف العربي فازدادت عناية أهلها باللغة العربية، دون أن ننسى التجربة الجزائرية في التمسك بلغة القرآن، بعد أن حاولت فرنسا محوها. وعليه فإن ما يحصل من العرب المهاجرين إلى بلدان العالم يجب أن يؤدي إلى دراسته الدراسة الواعية، وعلى وزارة الخارجية وعلى المغتربين إعداد الإجراءات اللازمة للحفاظ على لغتهم، وإلا نسوها بعكس ما يفعله الآخرون. فالعربية ليست فقيرة ولا عاجزة بل إنها تملك ثروة لغوية لا تملكها لغة أخرى، في الوقت الذي تحوز نظماً وبنى متطورة ونامية تهيئ كل من يتحدث بها لاستيعاب أعقد أنواع العلوم والمصطلحات والمفاهيم والتقنيات و...

٩ ـ لوحظ أن هناك علاقة سببية بين الفقر المادي وبين التخلف والأمية؛ إذ يمتنع التفكير في ثلاث: الجائع والحاقن والبردان... ما يؤكد تلازم التنمية الثقافية اللغوية والتنمية الاقتصادية، في الوقت الذي ينبغي أن نحرص فيه على الرقابة الوطنية الذاتية والجماعية؛ الرسمية والشعبية لتقوية

---

[1] انظر الجامع الصغير ٢/ ٢٤٤ ـ رقم الحديث (٦٣٧٠).

الوعي الاجتماعي بالانتماء.. فإذا تهددت اللغة من لغة أخرى أسرع أبناؤها إلى الاحتماء بالانتماء الذي تمثل اللغة فيه أهم مكوناته؛ فعوامل الممانعة اللغوية لا تقل قيمة عن بقية العوامل الأخرى. ولعل ما يجري من دول الجنوب يعدّ أبرز مثال على هذا في مواجهة سيطرة دول الشمال عليها اقتصادياً، ولاسيما تلك الممثلة بالعولمة التي أخذت تساوي الأمركة.

وهذا يعني أن هناك تنمية مستدامة وشاملة لأي ثقافة خاصة لهذا الشعب أو ذاك... وعليه ممارسة التكيف الاقتصادي واللغوي مع حالات التحول والتغير دون أن يفقد هويته وشخصيته المميزة له.

ولما كانت اللغة العربية والتربية الأصيلة والإبداعية متلازمتين كان علينا أن نختم الحديث بها ، مركزين الكلام على ما ينبغي تحقيقه في (اللغة العربية وتربية الإبداع).

القسم الثالث: اللغة العربية وتربية الإبداع:

١ ـ اللغة مادة الإبداع:

تشكّل اللغة العربية التربية الإبداعية في كل شأن من شؤون الحياة والفكر والأدب والفن والكتابة والخط، وتتنوع أساليبها كتنوع أساليب التدريس فيها على مختلف الصُّعُد، والطرائق فردياً وجماعياً، معرفياً وعلمياً،.... فاللغة العربية تملك من الأساليب ما لا تملكه لغة أخرى، ومن يتحدث عن الأساليب بكل أنماطها: مباشرة وبعيدة، حقيقية ورمزية، حسيّة ومعنوية، و... لا ينبغي أن يغيب عن ذهنه أثر اللغة العربية في تربية الخيال بكل أنواعه تخيّلاً وتخييلاً. فالصورة الخيالية في أساليب اللغة العربية الأدبية والفنية شعراً ونثراً، كتابة وإنشاداً تخلق الدهشة والإعجاب في كل متلق لها، ومن ثم تنمّي الفكر الإبداعي التخيّلي والتخييلي لديه كلّما استطاع استلهام تلك الصورة، أياً كان مقامها رمزياً أم حقيقياً...

فاللغة بهذا المقام قدرة إبداعية ترتفع عن أن تكون مجرّد عملية عقلية أو صدى لإحساسات ذاتية؛ وإنما هي تجربة تاريخية لغوية وبلاغية ومعرفية وفنية أدبية وجمالية تستلهم

الموروث وتناقشه وتطوّره ولا تقف عند الأنماط الثابتة الموروثة بل تنفتح على كل ما يغنيها لاستمرار حياتها وتجديد شبابها.

ومن ثم فإن ثراء الأساليب اللغوية والبلاغية والعلمية والفقهية والفنية والأدبية جعل اللغة العربية تتفرّد بخصائص وفنون لا نجدها في غيرها كعلوم اللغة والبلاغة والفقه و.. وكلّها عززت قدرة أبنائها على التجلّي والإلهام والابتكار.

لذلك فالإبداع في التعبير الأدبي المرافق للقدرة الذهنية على التصرّف بالمعارف وإتقان الأساليب الفنية والجمالية والارتقاء يقاسان بنوع الخطوات الخلاقة التي تحققها الذات المبدعة في وسط فاعل ومؤثر أياً كانت طبيعته أو ماهيته من الأسرة إلى المدرسة ومراكز الجامعات والبحث العلمي و.... علماً بأنها تبدأ من عملية التغذية الراجعة الفردية لكل مجتهد، لتنمية لغته الصحيحة بوساطة التسميع الذاتي والجماعي؛ في الوقت الذي تغنى بالدلالة بوساطة القراءة المنتظمة التي يؤسسها المعني بها وفق برامج مدروسة.

فاللغة العربية تُثري المفردات اللغوية في ضوء التدرج الذي يُربَّى عليه الإنسان، وتنقله من الخاص إلى العام ومن المادي إلى المجرّد، ومن الحسي إلى الذهني في تفاعل لا نظير له بين اللغات الأخرى؛ وقد يكون العكس صحيحاً.

٢ ـ أثر اللغة في تربية الإبداع:

ظلّت اللغة العربية على الدوام قادرة على إنتاج الذات الإبداعية وتربيتها وتغذيتها بالنطق الصحيح، والمفردات والأساليب العديدة؛ وكانت في كل ذلك ترتقي؛ ما أحسن أبناؤها إدراك طبيعتها وأتقنوا توظيفها في مجالاتها الدقيقة والمناسبة وفق الاتجاهات الآتية:

١ ـ فهي تحقق التوازن في الذات العاطفية للفرد والجماعة، حين يتخلّص المبدع فيها من الاضطراب النفسي والقلق والتردد؛ فهي تنتشله من حالات الصراع اللاشعوري إلى مقام الإحساس بالتفرّد والتوازن الداخلي القادر على الإلهام وابتكار أمور لا يقدر عليها غيره، والتعبير بها بطلاقة

ومرونة وجمال، فمن ملكَ ناصية اللغة حقق توازنه الداخلي، دون أن يُصاب بعقد النقص.

٢ ـ وهي تحقق التكيف الاجتماعي الراقي في الفرد المبدع حين يتسامى عن الانغلاق وينفتح على الآخر، ابتداء من اتصاله بالأمّ المرضعة والمربية والمعلمة وانتهاء بالوسط الذي يقوي حالة الارتباط به أسرةً ومجتمعاً ومدارس وجامعات و.... وهذا يقوّي لدينا الميل إلى الحديث عن أثر الأم في تكوين لغة الطفل، ومن ثم يمتد هذا الأثر إلى ما تقوم به المدرسة والمجتمع والمؤسسات العامة والخاصة. فإذا تضافرت جهود كل منها مع الآخر أنتجت أساليب لغوية ناصعة، وتحققت ماهية التكيّف الاجتماعي المطلوبة لتنتج في نهاية المطاف القدرة على الإبداع. وهذا يعني أن كل مَنْ يمتلك القدرة على التعبير يغدو أكثر قدرة على التكيّف الاجتماعي؛ وأكثر انفتاحاً على المجتمعات الأخرى ولغاتها، دون أن ننسى لحظة واحدة بأن اللغة تتطور في وسطها الاجتماعي والثقافي، والعلمي و....

٣ ـ وهي تحقق الانفتاح على الكون الإنساني، فتجعل الفرد يأخذ منه ويعطيه بمحبة واحترام دون رفض أو إلغاء؛ على اعتبار أن اللغة العربية لغة كوكبية في بنيتها وطبيعتها ووظيفتها وأهدافها كما عبرت عنه قوانين التعريب (التوليد والنحت والتركيب والاشتقاق) ومبادئ الترجمة الأصيلة. فاللغة العربية بعيدة عن الصراع مع غيرها؛ فهي تحتويها وتتفاعل معها ولا تلغيها، وتعزز تواصل أبنائها مع الآخر، وفق مبدأ (الحكمة ضالة المؤمن أنّى وجدها التقطها). ولعل لغة الشعر الجاهلي عامة ولغة الشاعر الأعشى (ميمون بن قيس) خاصة من أعظم الأدلة على ذلك، إذ جمع شعره كثيراً من مفردات اللغة الفارسية حتى دخلت في بنية مفرداتها[1]، بل إن القرآن الكريم حوى ما يزيد على أربعين لغة في نصوص

---

[1] انظر كتاب (مرايا للالتقاء والارتقاء بين الأدبين العربي والفارسي ـ ٤٨ ـ ٧٠ و ٨٨ ـ ١٠٢).

آياته ـ كما انتهى إليه الدارسون ـ منها ما صيغت صياغة عربية وفق قانون التعريب، ومنها ما استعملت كما هي في لغتها الأصلية، وهو ما عرف منذ القديم بالدخيل الذي عني به عدد من الدارسين أمثال الجواليقي، في الوقت الذي شغل المحدثين. أما الترجمة من اللغات الأخرى فقد شاع أمرها بين ظهرانينا؛ وهي تحتاج إلى تنظيم ورعاية حتى لا تنقلب إلى فوضى مستشرية، وتغدو مشكلة تستعصي على الحل، ولاسيما إذا كان المترجمون لا يتقنون اللسانين، اللسان الذي يتحدثون به ويترجمون إليه، واللسان الذي يترجمون عنه، دون أن ننسى لحظة واحدة أثر المترجمين المبدعين في إغناء اللغة كما شهدناه في حضارتنا العربية إبّان النهوض العربي، وفق ما عرفنا في الأدب والفكر والفلسفة والعلوم على يد ابن المقفع وجابر بن حيان والرازي والحسن بن الهيثم والفارابي، وابن سينا وغيرهم.

فاللغة العربية لا تتناقض مع غيرها وإنما تعزز التواصل معها وتُثري الألسنة الأخرى بصورها، فضلاً عن إثراء المفردات والأساليب الذاتية والموضوعية في بنيتها في الوقت الذي تجسد الهوية الأصيلة الضاربة في التاريخ، ما يثبت لنا أنه لا يوجد نظير لها في لغات العالم لأن هذه اللغات انفصلت عن جذورها.

٣ ـ أثر تدريس اللغة في تربية الإبداع:

بناء على ما تقدم كلّه فلا يضير هذه التربية الإبداعية للغة أكثر ممّا يقع من أساليب تدريس اللغة العربية في المدارس والجامعات، وهي أساليب أكل عليها الدهر وشرب، أو أكثر ممّا آل إليه وضع المعلم، إذ أصبح فاقداً للقدوة الحسنة وللشروط الأولية لعملية الإبداع أو أكثر مما يقع في ترجمة العديد من الكتب المدرسية وفق آليات فردية تتكرر تارة، وتقع في الأخطاء تارات أخرى..

وكل من يريد أن يحقق شرط التربية المبدعة لتصبح اللغة العربية أداة للإبداع قبل أن تكون هدفاً في الوقت ذاته عليه أن

يلتفت إلى الأمور الآتية[1]:

١ ـ إيجاد المعلم القائد والذي يُمثل القدوة في اللسان والحياة، ليكون استكمالاً للأم المربية والمعلمة، ودعماً لعمل الأسرة المتعاونة على خلق الاستعداد اللغوي الإبداعي وإنضاجاً لمهمة المؤسسات العلمية التي ترعى التربية والترجمة العلمية الموضوعية الصحيحة. فاستخلاص الشهد من خطوات العباقرة والمعلمين يخلق في الفرد أشكالاً من الإبداع المميّز لأصحابه.

٢ ـ إيجاد المنهج الإبداعي في اللغة وغيرها على الصعيد الفردي والجماعي. ويتّصف هذا المنهج بأنه منهج نقدي لغوي ريادي يحفّز الذاكرة ويخلق المبادرة، ويرتبط ببرامج متطورة على الدوام بهدف تعلّم اللغة والانفتاح على التجارب الأخرى والتقنيات الحديثة.

٣ ـ دراسة مفردات المقرر التي تنمّي الإبداع اللغوي لإنتاج أفكار وصور غير عادية، ولخلق حساسية ذوقية مرهفة لحل المشكلات؛ وهي دراسة تقوم على التدريب والتغذية الراجعة المستمرة.

٤ ـ دراسة مكان التربية الإبداعية، فلم يعد خافياً ما للمكان أو البيئة من أثر عظيم في الإبداع؛ ولاسيما الإبداع اللغوي والأدبي وهنا يصبح للمدرسة والجامعة والمعاهد العلمية الأثر الأعظم في ذلك كله. فخلق الصور البديعة الرائعة تحتاج إلى بيئة محفّزة لذلك؛ ما يعني أن مدارسنا قد فقدت شروطاً كثيرة من هذه الخصائص؛ وهنا نتذكّر الفرزدق الذي جعل الطبيعة حضنه للإبداع.

٥ ـ تنمية الجوانب العملية للغة المبدعة: ومن ذلك (المدارسة والمطالعة والحفظ واللعب واستعمال الأدوات المساعدة اللازمة؛ بما فيها التقنيات الحديثة والمخابر الصوتية

---

[1] راجع ما تقدم ص ٩٦.

إذ لم يعد بالإمكان تجاهلها)، فضلاً عن اعتماد المشاركة بين المعلم والطلبة والابتعاد ما أمكن عن التلقين والمحاضرة.

وقد أثبتت التجارب العربية والعالمية أن العناية بالجوانب التطبيقية العملية على الصعيد الفردي والجماعي كانت صاحبة الحظ الأوفر في تنمية اللغة المبدعة وتربية الإبداع عند المتعلّمين.

ويقف في طليعة ذلك تعوّد المدارسة الذاتية والجماعية؛ وإتقان أساليبها، وتنمية الذاكرة بالتسميع الذاتي والحفظ المبني على الحذف والإلغاء والاختيار والاصطفاء؛ على حين تكون زيادة المعارف والفنون والآداب والعلوم بالمطالعة. أما اللعب بكل أشكاله فهو جزء أصيل في تربية الإبداع، وقد أخذ اللعب خطوات جديدة ومبتكرة في العصر الحديث مع ظهور الحاسوب (الكمبيوتر) والشابكة (الإنترنت) وغيرهما من التقنيات الحديثة. فإذا أحسنا استخدامها، باعتبارها وسائط تعليمية استطعنا تنمية اللغة المبدعة عند التلميذ وكل متلقٍ.

بقي أن نقول: إن موضوع تعليم اللغة العربية ومناهجها ـ قراءة وكتابة ـ يُعَدُّ أمراً عظيم الشأن في تربية الإبداع على مختلف الصُّعُد، وهذا ما أمر به الإسلام حين أصرَّ على مبدأ القراءة والكتابة.

ومن ثم فاستخدام اللغة العربية ليس وليد تعصّب ذاتي، أو أسلوب تعويض عن نقص، وإنما هو نتيجة طبيعية ومنطقية وعلمية يمليها العقل والضرورة التاريخية لحاضر الأمة ومستقبلها. فإذا استمرت اللغات الأخرى بغزو مجتمعنا العربي فإن السيرورة اللغوية التاريخية ستكون في غير صالحها، ما يفرض على المؤسسات أن تتبع سياسة لغوية واضحة ودقيقة تخدم لغة الأمة، وتنقذها من غزو اللغات الأخرى التي بدأت تسيطر على شؤون كثيرة من شؤون الحياة، والمؤسسات الإدارية والعلمية والثقافية. فهناك كثير من المؤسسات بدأت تصطنع اللغة الإنكليزية في مراسلاتها ومعاملاتها، وكأن اللغة العربية أصبحت عاجزة عن تلبية حاجاته؛ أو كأنها غير صالحة بطبيعتها للعديد من المهمات الموكلة إليها بعكس اللغة الإنكليزية التي يزعم كثير من

أنصارها أنها اللغة الأفضل... ولهذا تصبح المؤسسة الإعلامية والسياحية والإدارية أعظم إيذاء للغة العربية من المؤسسات التعليمية، لأن ما يجري فيها من تجنب الفصحى في المراسلات والحديث يدعو إلى العجب.

ولما كانت الدراسات المستقبلية تتسع بشكل كبير في العالم كله، وعلى أبناء الأمة العربية ألا يكونوا بعيدين عنها، فالتحديات والأخطار التي تواجه لغتهم اجتماعياً وثقافياً وإعلامياً وإدارياً وسياحياً لا يقل خطورة عن الأفكار الأخرى في بقية المجالات الحضارية، كان عليهم التنبه على عدم الوقوع في فخ الاستلاب اللغوي والحضاري، علماً أن بعض الدراسات تذهب ـ وفق مفهوم (صدمة المستقبل) ـ إلى أن أي تطور قادم ليس بالضرورة أن يكون أفضل بكثير من الماضي العريق، لأن طريقة الاستجابة للمشكلات الكبرى بدأت تستغرق زمناً طويلاً، وأهمها العزوف عن اللغة الأم أو ما يتعلق بالأمية وازديادها، إذ تقدر الآن بنحو (٧٠) مليوناً في الوطن العربي، ما يعني الإسراع في ابتداع الأساليب لنشر التعليم والترغيب في القراءة، لقلة أعداد المدرسين والمعلمين بالقياس إلى الكثافة الطلابية واستشراء الأمية.

وهذا يفرض علينا ازدياد العناية باللغة العربية في التعليم التقني أو الإلكتروني، علاوة على الجامعة المفتوحة، لأن مفهوم الحضارة اليوم يستند إلى برمجة جماعية للعقول، أي إننا بحاجة إلى إقامة حملة منظمة ومدروسة لزيادة الكفاءة في استخدام اللغة العربية في التقنيات التربوية والتعليمية وغيرها، فضلاً عن الوسائل السمعية والبصرية الأخرى، وأبرزها الحاسوب والشابكة (الأنترنت) والمخابر الصوتية واللسانية، دون أن ننسى ما تقدمه وسائل الإعلام في هذا المجال.

ولهذا لابدّ من إجراء برمجة تقنية (إلكترونية) للغة التعليم والإعلام وتوفير الأدوات اللازمة لذلك، مع الاستمرار في تطويرها، وإيجاد مفهوم التدريب المستمر وورشات العمل الجماعية وأسابيع القراءة اللغوية والثقافية لكي يحقق المعلم عملية التوازن بين التدريس التقني (الإلكتروني) وبين التدريس التقليدي.

وفي ضوء ذلك كلّه لابدّ من التعزيز الإيجابي للمعلم في التعليم معنوياً ومادياً؛ لقول النبي الكريم ρ: [وقّروا من تعَلّمون منه العلم][1]، وقوله: [مثل العلماء في الأرض كمثل النجوم في السماء يُهْتدى بها في ظلمات البر والبحر، فإذا انطمست النجوم أوشك أن تضلَّ الهداة][2].

وفي ضوء ذلك كلّه تبرز مكانة اللغة العربية في تربية الإبداع حياةً؛ وسلوكاً؛ تأليفاً وتعليماً، ما يحقق للعرب نهضة فكرية وثقافة وأدبية متميزة وراقية، وما يحدونا لإثبات كلمة ختامية في هذا الفصل.

ـ هكذا يستقر بنا المقام لنشدد أخيراً على مايأتي: إذا كان الاستعداد الفطري موجوداً عند أطفالنا منذ الولادة لاكتساب اللغة فإنه ينبغي علينا أن نمكّن الأسرة العربية من وعي قيمة لغتها، وكذلك علينا أن نمكّن العاملين والمسؤولين في الحي وفي رياض الأطفال وفي دور العبادة من اللغة العربية، وأن نعنى بهم العناية الفائقة للارتقاء بأساليبهم لتصبح الغريزة محتملة لتعلم العربية، وفهمها واستيعابها وتمكينهم من القدرة على الاستنباط؛ وإدراك مدى أثرها في الحفاظ على الهوية وخصائصها. وبمعنى آخر فإن هذا كله لا يتأتى تحصيله إذا كانت البنية الاجتماعية غير مهيأة لهذا الواجب، ولا هي قادرة على تعزيز ذلك الاستعداد ما يفرض علينا العناية لغوياً وثقافياً، عن طريق القيام بدورات تأهيل لها، على نحو ما. وعلى وزارة الثقافة، و وزارة الشؤون الاجتماعية والعمل ووزارة الأوقاف تحمل المسؤولية في هذا الجانب، ويكون للاتحاد النسائي دوره الفاعل في هذا المقام، ومثله اتحاد العمال والفلاحين وغير ذلك من الهيئات الاجتماعية والرسمية، فتضافر جهود هذه الهيئات يوصلها إلى التخلص من اللهجات العامية نهائياً، كما يجعلها قادرة على التحرر من عقدة الأجنبي واستعمال لغته. ويمكن لوزارة التربية والإعلام

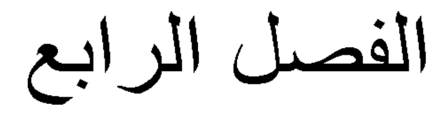
---

[1] الجامع الصغير ـ رقم الحديث ٩٦٢٨.

[2] الجامع الصغير ٢٤٤١

أن تتعاونا بإحداث برامج لغوية توجه إلى البنى الاجتماعية على اختلاف مواقعها.

إن ما ذكرناه كافٍ لإدراك الهدف الذي رغبنا فيه، فيكفي للعاقل العارف أن يتذوق قطرة من ماء البحر ليشعر بملوحته؛ وإلا فإن ذوقه فاسد. ولعله ينقلنا إلي الفصل الرابع (سمات لغوية) الذي يقدم الأدلة الحية على ثراء اللغة العربية وجمالها.



سمات لغوية

القسم الأول: النوادر من التراث اللغوي إلى الاستعمال الوظيفي.

القسم الثاني: جمالية اللسان في اللغة والحياة.

القسم الأول: (النوادر)
من التراث اللغوي إلى الاستعمال الوظيفي

١ ـ كتب التراث اللغوي والاتساع في الاستعمال:

لا تزال اللغة العربية مدار عناية الباحثين والدارسين والمبدعين؛ وكل الغيورين على صحة مفرداتها ومصطلحاتها، وتراكيبها وأساليبها؛ باعتبارها لسان الفكر والهوية، ووعاء التراث والثقافة، وصلة لقومها بالآخرين لما تمتلكه من قدرة على النمو والتطور والتفاعل في الحياة والمعرفة والعلم والفن والأدب.

لهذا ألّفَ الأجداد الكتب العديدة في اللغة والأدب والنقد والفقه والتفسير.. حفاظاً عليها من جهة وتأكيداً لقدرتها على مواكبة الحياة وشمولها على دلائل لا تنتهي من جهة أخرى، باعتبار ما تملكه من سعة في الأبنية والمادة، ولهذا قيل: إن معجم (لسان العرب ـ لابن منظور) حوى /١٢٠/ ألف مادة ولم يستوعب كلام العرب كله وما يعادل /١٦/ ألف جذر، على حين أن اللغة العبرية لا تزيد على /٢٥٠٠/ جذر، وأحيت هذه الجذور بعد اندثار كثير منها، علماً بأن هناك دولاً أحيت لغتها بعد موت محقق (علمياً ومعرفياً وتقنياً) مثل اليابان والصين، نظراً لكثرة حروفها، وتعقيد بنيتها ... ما يفيد بأن الأمة القوية في نتاجها المعرفي والعلمي والتقني و... قادرة على تطوير حياتها ولغتها، ولا سيما في إطار توسيع الدلالة،

وتعريب المصطلحات، وفق المعايير المعتمدة لديها. وهذا ما تمتاز به العربية من قدرتها على استيعاب غيرها من اللغات في أحلك الظروف.

وقد أكدت الكتب التي ألفت في التراث اللغوي حقيقة الاتساع في استعمال العربية؛ ما يعني ثراءها ألفاظاً وتراكيب ومعاني... ومنها كتب في معجمات الألفاظ مثل (الصحاح ولسان العرب، والقاموس المحيط، وتاج العروس، وتهذيب اللغة؛ ومقاييس اللغة، ...) ومعجمات المعاني مثل (أساس البلاغة للزمخشري) و(المخصص لابن سيده)، و(فقه اللغة العربية للثعالبي/ ت ٤٢٩ هـ)..).

ومنها كتب في معاني الحروف مثل (حروف المعاني للزجاجي/ ت ٣٤٠ هـ) و(الجنى الداني في حروف المعاني للمرادي/ ت ٧٤٩ هـ) و....

وصنفوا كتباً أخرى عرضت لخصائص اللغة وأسرار العربية مفرداتٍ وأساليب كما هو عليه الحال في (الخصائص، لابن جني/ ت ٣٩٢ هـ) ... و (المزهر للسيوطي/ ت ٩١١هـ).

ولم يغفلوا عظمة اللغة العربية في اشتمالها على ظواهر لغوية عدة فصنعوا لها كتباً خاصة بها مثل (الأضداد، والفروق اللغوية، والتصحيف والتحريف، والغريب والحوشي)[1]؛ وتعرضوا للمعرّب والدخيل كما هو كتاب (المعرّب للجواليقي/ ت ٥٤٠ هـ) و(شفاء الغليل في كلام العرب من الدخيل للخفاجي/ ت ٩٧٧ هـ)...

والتفتوا إلى المصطلحات في جوانب علمية ومعرفية وأدبية وفنية متنوعة فرادوا حقولاً فيها أكدت أسبقيتهم، كما أكدت حيوية العربية وقدرتها على التجدد والتطور في الدلالة بعد أن أثبتت قوتها في احتوائها لكل الألفاظ الدخيلة من اللغات

---

[1] انظر مثلا كتاب (الأضداد لابن الأنباري/ ت ٣٢٨ هـ) و(الفروق في اللغة) و(التصحيف والتحريف) وكلاهما لأبي هلال العسكري (ت ٣٩٥ هـ).

الأخرى، ومن أبرز كتب المصطلحات (التعريفات للجرجاني/ ت ٨١٦ هـ) و(كشّاف اصطلاحات الفنون للتهانوي/ ت بعد ١١٥٨ هـ).

ولا مراء في أن اللغة العربية قد دخلت ميدان التفسير والفقه؛ وغيرهما مما اتصل بالدراسات القرآنية والحديث الشريف، دون أن ننسى ما يرتبط بقضية الإعجاز القرآني؛ وقيمة اللغة العربية في هذا الصدد[١].

وقد يقول قائل: يمكن أن نستوعب ما ذكرت من كتب التراث اللغوي وأثرها البيّن في الاتساع الدلالي للغة العربية، فكيف يمكن لهذا الشأن أن يتحقق في كتب (النوادر) التي عنونت البحث بها؟ ومن ثم ماذا نعني بالنوادر؟!!.

٢ ـ (النوادر) من التراث اللغوي إلى الاستعمال الوظيفي:

لا يختلف اثنان في أن لفظ (النوادر) جمع لكلمة (نادرة) والفعل (ندر)[٢] فنقول: ندر الشيء يندر ندوراً سقط، وشَذَّ، أي ما شذَّ وخرج من كلام الجمهور... وقيل: إنما يكون ذلك في النَّدْرة بعد النَّدْرة... ولهذا يقال: ندر الرجل: مات، لأنه يكون في العمر مرة واحدة وعليه قول ساعدة بن جؤيَّة الهذلي:

كلانا، وإن طال أيامه سيندر عن شَزَنٍ مُدْحض

والنَّدْرة: القطعة من الذهب أو الفضة، وكل معدن نادر... وهناك معان أخرى لطيفة في دلالة (ندر) كلها تؤكد معنى

---

[1] انظر مثلاً كتاب (دلائل إعجاز القرآن) و(تأويل مشكل القرآن) (مجاز القرآن) و(تفسير غريب القرآن) و(تفسير غريب الحديث) و(النهاية في غريب الحديث) و(تأويل مشكل الحديث).

[٢] انظر لسان العرب (ندر) في كل ما يتعلق بمعنى (ندر).

الاتساع الوظيفي الذي استعمله العرب القدماء، فجئنا نحن فضيقنا على أنفسنا، إذ صار معنى النَّدْرة مختصاً بمعنى الطريف من الأمور والأشياء، والغريب غير المألوف. ويعد هذا المعنى أكثر شيوعاً في أيامنا من غيره، أما القدماء فقد اتجهوا في معنى (النوادر) إلى ((الألفاظ العربية غير المألوفة)) بصورتها الشمولية والمطلقة والتي صنفوها في كتب أطلقوا عليها كتب (النوادر) أو (الشوارد) أو (الشواذ)، ويلحق بها كل ما تعلق بكتب اللحن التي تتناول الأغلاط أو الأخطاء أو الخلل أو الاضطراب أو الترادف أو الاشتراك..... إذ كان القدماء يحرصون على إبراز الفصيح الأصيل المقدَّم عندهم، ويعرضون لأحوال كل لفظ من تلك الجهات، تأكيداً منهم لنفي الشوائب عن لغتهم، وإثباتاً لسعة الدلالة في العربية[١].

وإذا كان كتاب (النوادر في اللغة) (لأبي زيد الأنصاري الخزرجي/ ت ٢١٥هـ) وكتاب (الشوارد في اللغة للصّغاني/ ت ٦٥٠هـ، ـ وهناك من سماه بالنوادر ـ)[٢] من أشهر الكتب التي وصلت إلينا (في باب النوادر فإننا لا ننسى كتباً أخرى تناولت هذا الاتجاه كتلك الكتب التي تحدثت عن الأحاجي والألغاز وصفات الإنسان والخيل والإبل والوحوش، والنبات والسلاح والأشربة... فضلاً عن الكتب التي تناولت الشواذ في اللغة.

وكل ما أثبتنا يُصنَّف في كتب التراث اللغوي التي تعرضت للألفاظ غير المعروفة، والمجهولة الاستعمال؛ أو البعيدة عن متناول عامّة الناس، وإن عرف شيء قليل منها

---

(1) ـ انظر مثلاً كتاب (إصلاح المنطق لابن السكيت/ت ٢٤٤هـ) و(تقويم اللسان لابن الجوزي/ ت٥٩٧هـ)، و(تثقيف اللسان وتلقيح الجنان لأبي حفص عمر بن خلف بن مكي الصقلي/ ت ٥٠١هـ)...
ـ وذكر كتاب (مصنفات اللحن والتثقيف اللغوي) للدكتور أحمد قدور ـ وزارة الثقافة ـ دمشق ١٩٩٦م) عدداً من الكتب المشار إليها، انظر فيه (ص١٠١ وما بعدها).

(2) ـ انظر الشوارد في اللغة ص٥٦ و ٨١-٨٢ ـ تحقيق عدنان عبد الرحمن الدوري ـ مطبعة المجمع العلمي العراقي ـ ١٩٨٣م.

لدى الخاصة... ما يعني السعي الجاد والصادق إلى التوسع في استعمالها باعتبارها من الفصيح المهجور، لنتخلص من القاعدة الشائعة لدينا كما يقال: (خطأ مشهور خير من صحيح مهجور).

ونعتقد بأن استعمال مثل (هذه النوادر؛ غريبة بعيدة كانت أم شاردة وشاذة، ومتعددة الأداء في طريقة النطق، مما اشتبه به اللحن) يمكن أن يقدّم للأمة خدمة جليلة، في إحياء العربية واستعمالها واتساع دلالتها مما يؤدي إلى ضبط اللسان والقلم فيبرأ من الخطأ والخلل والزلل والتعثر في أداء اللفظ والجمل وكتابتهما، وهذا يتيح للغة العربية القدرة على التجديد والابتكار، باعتباره واحداً من العناصر الحيوية الكامنة فيها، لمواكبة الحياة المعاصرة؛ والاستعداد للتفاعل مع كل ما يظهر من معارف وعلوم وتقنيات وفضائيات... حاضراً ومستقبلاً، وإلا انقلبت لغتنا إلى لغة متخلفة، جامدة، ما يؤول بها إلى الذوبان في غيرها، ومن ثم الموت.

هكذا يتضح لنا أن أبا زيد الأنصاري وأمثاله كانوا يهدفون إلى تعقب نوادر اللغة الغريبة والمختلفة والبعيدة لشرحها وتوضيحها وذكر مشتقاتها، وكانوا يؤيدون رأيهم ـ أحياناً ـ بعدد من أشعار العرب وحكمها ووصاياها؛ ما يعني أنهم قدَّموا خدمة جليلة في الحفاظ عليها من جهة، وإمدادها بثروة لغوية كانت عوناً للمفسرين والأدباء على تفسير ما لم يقعوا عليه في المعجمات وكتب اللغة الأخرى، من جهة أخرى ابن عباس وكلمة "تخوف" الآية القرآنية. وحين كان ذلك كذلك فإننا أردنا لهذه الكتب أن تغدو مادة قوية ودافعة للمعاصرين للاتساع في استعمال ما يحتاجون إليه منها في أساليبهم ومعانيهم... ما يشي بأننا نبتغي تجاوز ما قيل عن مفهوم دراسة التراث اللغوي والحفاظ عليه، أو ما قيل عن دراسة النحو والنحو الوظيفي القادر على إنتاج متلق يضبط الكلمات نطقاً وكتابة ليسلم القلم واللسان من الخلل والانحراف. وهذا ما نستشفه من عرض أبي زيد الأنصاري لفعل (راح) إذ قال: "ويقال: رُحْت بني فلان أروحهم رواحاً، إذ رحت إليهم أو رحت من عندهم. قال أبو

حاتم والمازني: أو رحت عندهم"[١]. والرواح لا يكون إلا قبيل المساء[٢]، على حين صارت الدلالة لدينا تعني الرواح مطلقاً.

وفي هذا المقام لا يمكن للباحث أن يتجاهل الكتب التي تعلقت باللحن والأغاليط، سواء تخصصت في هذا الأمر أم اشتملت على أبواب شتى بما فيها باب (اللحن) مثل كتاب (الكامل في اللغة والأدب) لمحمد بن يزيد المبرد (ت ٢٨٥هـ). ولفظ اللحن يدخل في باب النوادر من المعاني وقيل: لحَّن في قراءته إذا غَرَّد وطرب فاللَّحنْ: الغناء والتطريب وترجيع الصوت وعليه قول يزيد بن النعمان في وصف حمامة يتمايل بها غصن رطيب:

يميل بها وتركبه بلحن   إذا ما عَنَّ للمحزون أنّا

لحن الرجل يلحن لحناً، تكلم بلغته[٣]، وهو ألحن الناس أحسنهم قراءة وفطنة وحجة؛ وبرهاناً، وربما معرفة، وعليه قول الرسول الكريم " لعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض" أي أحسن فطنة وحجة.

وقيل: لحن يلحن لحناً؛ إذا قال كلاماً لا يفهمه إلا صاحبه أو القلة؛ لدخوله في باب التورية والإلغاز والنوادر وصَرْفِه عن جهته المقصودة وعليه قول القتَّال الكلابي:

ولقد لَحَنْتُ لكم لكيما تفهموا   ولحنت لحناً ليس بالمرتاب

ويبدو أن ما نستعمله اليوم من معنى اللحن إنما يدخل في

---

(1) - المصادر الأدبية واللغوية ـ ص٣٢٣ ـ د. عز الدين إسماعيل ـ دار المعارف بالقاهرة ـ ط٢ ـ ١٩٨٠م.

(2) - انظر مثلاً كتاب (ما تلحن به العامة ـ للكسائي/ ت ١٨٩هـ). وراجع (حاشية (١) ـ ص٤.

(٣) انظر في كل ما يأتي عن مادة (لحن) في (لسان العرب).

الطرب والغناء أو الخطأ والغلط وكل ما هو ضد الإعراب والإبانة والفصاحة، وعليه قول عمر (رضي الله عنه): ((تعلّموا اللحن (أي الخطأ في الكلام) لتحترزوا منه)). فلحن فلان يلحن وهو لاحن ولحّان ولحَّانة ولحَنة؛ إذا أخطأ وعدل عن الصواب، وعليه فسر قول مالك بن أسماء بن خارجة الفزاري في وصف مغنية:

منطق رائع، وتلحن أحياناً وخير الحديث ما كان لحنا

ومن أشهر الكتب المتخصصة في هذا الاتجاه الكتاب الذي أشرنا إليه بعنوان (تثقيف اللسان وتلقيح الجنان) لابن مكي الصِّقلّي النحوي اللغوي. وهو يقوم على تصحيح الأغلاط اللغوية الشائعة على ألسنة الناس، ويصوب ما جرى على ألسنة الناس من توهم الغلط في قراءة القرآن الكريم، ـ وعرض له في إطار عرف عند الآخرين بشواذ القراءات ـ فضلاً عما تناوله في باب التصحيف والتحريف ثم يقف عند التداخل الذي وقع في الحديث الشريف وفي الفقه. ولم يزل الغلط شائعاً بين الناس قديماً وحديثاً، وطالما أنكره القدماء ووقفوا ضده؛ على حين ألفنا الخطأ واستمرأناه، وكرهنا الصحيح وهجرناه ما دعا بعض الغيورين على العربية إلى تأليف معجمات حديثة لتصحيح الخطأ الذي شاع على الألسنة مثل كتاب (معجم الأخطاء الشائعة) لمحمد العدناني.

ولسنا نشك في أن التواطؤ على اللحن/ الخطأ لا يبيح لنا الاستمرار فيه سواء كان في نطق اللفظ وأدائه، أم في تصحيفه وتحريفه، أم في حذف قسم من الحروف أو إبدالها... أم في ما وضع لغيره وليس له أم في التذكير والتأنيث أو...[1]

فمن باب الخطأ في الدخيل والتصحيف ما ورد في أسماء الأعلام مثلاً، كاسم (أزد شير بن بابك) والصحيح أنه (أرد شير بن بابك)، واسم (زاذان بن فَرُّوخ) والصواب (راذان بن

---

[1] انظر مصنفات اللحن والتثقيف اللغوي ـ ص ٤٣ ـ ٤٧ و ٥١ و ٥٥ و ٥٩ .

فروخ) وهو أحد رواة الحديث، و(راذان) موضع بالحجاز[1]
وفي هذا الباب من التصحيف ما وقع في شعر امرئ القيس[2]:

أحارِ بن عمروٍ كأني خَمِرْ ... ويعدو على المرء ما يأتمر

إذ أنشده كثير من الرواة (يغدو) وهو تصحيف.
وإذا كان التفاوت في استعمال اللغة الفصحى قد وقع قديماً بين القبائل العربية حتى تفرعت عنه دراسات شتى في الترادف والاشتراك؛ ومن ثم بيَّن الدارسون الأصول والفروع فيها، والتفاضل بينها فإن هؤلاء الدارسين قد سايروا النهضة المتجددة في استعمال البنية اللغوية وتراكيبها، وحاولوا تيسيرها كما وقع لأبي حيان في شرح (التسهيل) أو ما وقع للسيوطي في (المزهر). وإذا كان الاستشهاد بلغات العرب جائزاً وفق مبدأ التوسع في القياس فإنه لا يجوز لنا أن نقع في القياس على الغلط في باب تيسير النحو أو تجديده، محتجين بالعودة إلى بعض ألفاظ لهذه القبيلة أو تلك.
ولعل هذه المسألة التي تدخل في باب التخصص الشديد في صميم دراسة اللغة مثل (مسائل الخلاف بين البصريين والكوفيين)[3] ورأي البغداديين[4]، تؤكد أن اللغويين القدامى لم يتفقوا على رأي صميم في رد الكلام العربي الفصيح إلى النادر شاذاً كان أو شارداً أو مختلفاً عليه، وأغلبهم ذهب إلى تبني المشهور المعروف المتداول بين القبائل كافة.
وهذا الأمر لا يلغي التجديد والابتكار في اللغة العربية، إذ

---

(1) انظر تثقيف اللسان وتلقيح الجنان (ص ٣٨) ومصنفات اللحن ـ ص ١٤٣ ـ ٢٢٨ و ٢٥٨.
(2) تثقيف اللسان ص ٤٣.
(3) انظر الإنصاف في مسائل الخلاف لأبي سعيد الأنباري (ت٥٧٧هـ).
(4) انظر اللغة والنحو بين القديم والحديث ـ عباس حسن ـ دار المعارف بمصر ـ ص ٤٤ ـ ٤٩، ومصنفات اللحن والتثقيف اللغوي ـ د. أحمد قدور ـ ص ٣٥ و ٣٨ و ٥٥

تطورت وارتقت في الألفاظ والأساليب، ولا سيما أن "لسان العرب أوسع الألسنة مذهباً، وأكثرها ألفاظاً، ولا نعلم أنه يحيط بجميع علمه إنسان" كما قال الإمام الشافعي[١]. فالعربي "إذا قويت فصاحته وسمت لغته تصرف وارتجل ما لم يسبقه أحد به، فقد حكي عن رؤبة وأبيه أنهما كانا يرتجلان ألفاظاً لم يسمعاها ولا سُبقا إليها"[٢].

ومهما تكن الأسباب عند القدماء لاستعمال النوادر في اللغة فإن مواكبة التفجر المعرفي والعلمي والتقني... هي التي تدعونا إلى كل ما ينتمي إليها في المكتوب والمسموع من كلام العرب، وفي كل ما يؤيد أنه كان يوماً ما حكاية بعينها عن العرب. ولعل هذا يمنح لغتنا "قوة وسعة وقدرة على مسايرة الحياة المتجددة بمستحدثاتها العلمية والحضارية، وإلا أصيبت بالجمود والركود، والتخلف. وهذا شر ما تصاب به اللغة، وينظمها في عداد اللغة الميتة"[٣].

وعليه فإذا كان تجديد النحو العربي ضرورة ملحة في عصرنا ليصبح نحواً فاعلاً ومرتبطاً بحياة الناس من أجل أن يقوم بوظيفة ثقافية معرفية واجتماعية كبرى، على اعتبار أن النحو يعدُّ مدخل اللغة إلى العلوم العربية والإسلامية جميعها فإن ما نرمي إليه يعد أبعد مما ورد في الكلام على تجديد النحو؛ علماً بأن ما تركه لنا الأجداد من تراث نحوي يحثنا على اتخاذ الخطوات السريعة لإصلاح ما كانوا قد بدؤوا به ليتشكل وفق مقتضيات الحياة المعاصرة دون أن نتنكب جادة الابتعاد عن قواعده وقوانينه المتطورة... فالأجداد إنما وضعوا النحو لحل مشكلات الخطأ لا ليتعبدوا له... واستندوا في استنباط قواعده ونظمه إلى كلام العرب نثراً وشعراً. وحين تعددت آراؤهم النحوية فإنما كانت السبب وراء تيسيره والجري وراء تلك الآراء، ولعل كتاب (همع الهوامع

---

(1) انظر اللغة والنحو بين القديم والحديث ص ٣٧.

(2) انظر الخصائص لابن جني ـ ١/ ٤٢٤.

(3) اللغة والنحو بين القديم والحديث ـ ص ٥٧.

للسيوطي/ ت ٩١١هـ وكتاب (شرح الأشموني على ألفية ابن مالك ت/ ٩٠٠هـ) من أعظم الكتب التي تناولت هذه المسألة.

ومن ثم فإننا نرى أن ما انتهى إليه النحويون من آراء متعددة لا تقع في باب الاضطراب والاختلاف والتعارض، وإنما تقع في باب التوسع في استعمال كلام العرب، وهو اتساع يفيد اللغة ولا يوقعها في التقوقع والانغلاق والقصور... ومن أمثلة ذلك ما ورد في باب (كان) عند الأشموني إذ قال: ((لا فرق في دخول (الباء) في خبر (ما) بين أن تكون حجازية أو تميمية))[١].

وقد جاء في صيغة (فواعل) أنها شاذة في جمع صيغة (فاعل) التي تعدُّ صفة للعاقل المذكر مثل (فارس ـ فوارس، هالك، هوالك، شاهد ـ شواهد....)

ولما كان أصل الاستعمال مستمداً من مفهوم القياس فإننا نعتمد باب التوسع في هذه الصيغ المستعملة للأنثى (طائفة ـ طوائف...)[٢] ونادرة ـ نوادر، وعارفة ـ عوارف، وطالقة ـ طوالق، ... لتصل إلى غيرها من صيغ الكلمات المفردة المماثلة.

ومما يقوي الاتجاه الذي ذهبنا إليه ما ورد في بيان وجوه شواذ القراءات القرآنية في كتاب (المحتسب) لابن جني، فقد جرد نفسه للدفاع عن الاحتجاج للشاذ فقال: ((غرضنا منه أن نُري وجه قوة ما يسمى الآن شاذاً، وأنه ضارب في صحة الرواية بجرانه؛ آخذ من سمت العربية مهلة ميدانه، لئلا يُرى أن العدول عنه إنما هو غضٌّ منه، أو تهمة له))[٣].

وكان في ذلك كله يبين فصاحة أي كلمة وطريقة أدائها بردها

---

(1) اللغة والنحو بين القديم والحديث ـ ص ٧٠.

(2) انظر مصنفات اللحن والتثقيف اللغوي ٢٥٨.

(3) انظر المحتسب ـ تحقيق علي النجدي ناصف وزميليه ـ القاهرة ـ ١٩٩٤م ـ ص ١١ وقد تناول الصَّغّاني في ((الشوارد في اللغة)) بحثاً كاملاً عن الشواذ في القراءات القرآنية وأثرها في اللغة ٧٢ وما بعدها و١٣١ وما بعدها.

إلى الفصيح الصحيح ـ وإن اختلفت تلك الطريقة بين العرب[١] ـ أو يبين طريقة الإبدال في أحد الحروف كما في إبدال (الجيم) (ياء) في (شجرة) فقال ـ بعد أن أنشد قوله رؤبة: تحسبه بين الإكام شِيَرَةَ ـ ((وإذا كانت الياء فاشية في هذا الحرف كما ترى فيجب أن تجعل أصلاً يساوق الجيم، ولا تجعل الجيم بدلاً من الياء في قولهم: رجل فقيمج أي فقيمي، وعَرَبانج أي عَرَباني))[٢].

وفي الإلغاز والأحاجي كانت الشوارد والنوادر اللغوية تؤدي وظائف نفعية عدة منها الاستمتاع بطرافتها، وإثارتها للذهن على مسائل نحوية من أجل اتباعها فضلاً عن إثراء اللغة كما ورد في كتاب البيان والتبيين للجاحظ (ت ٢٥٥هـ) في باب (اللغز في الجواب) ومنه: ((كان الحطيئة يرعى غنماً له، وفي يده عصا، فمرّ به رجل فقال: يا راعي الغنم ما عندك؟ قال: عجراء من سَلَم ـ يعني عصاه ـ قال: إني ضيف. فقال الحطيئة: للضيفان أعددتها))[٣].

ولعل هذا اللغز يحدونا إلى ذكر الأحاجي اللغوية التي وردت في الأشعار والتي تعد باباً واسعاً من أبواب التعليم، في الوقت الذي تفيد الاتساع في الاستعمال؛ بمثل ما عُدَّت باباً من أبواب الشواهد النحوية التي يتملّح بها رواتها. ومن ذلك قول الشاعر العباس بن مرداس السلمي:[4]

أبا خراشة أما أنت ذا نفر ... فإن قومي لم تأكلهم الضَّبُعُ

فأبو خراشة يتفاخر بعدد قومه الذين يصمدون في السنة الشديدة العجفاء. ونضرب هذا الشاهد مثلاً لمن لا نستطيع دفع مفاخرته واعتزازه، على الرغم من أننا نعيش في ذلة وهوان.

---

[1] انظر المصدر السابق ص ٣٧ ـ وما بعدها.

[2] المحتسب ٧٤.

[3] المصادر الأدبية واللغوية ـ ص ١٤٤.

[4] لسان العرب ـ ضبع ـ.

أما الرجل المنافق المخادع الذي يقول مساءً غير ما قاله صباحاً، ويسير بك في النميمة فإننا نقول له؛ ما قاله المثقب العبدي لابن عمه:[1].

فإما أن تكون أخي بحقٍّ فأعرف منك غثي من سميني
وإلا فاطرحني واتخذني عدواً أتقيك وتتقيني

وفي ضوء ما تقدم لم يخطر في بالنا ـ لحظة واحدة ـ أن نشجع اللغة الرديئة، لأن من يشجع اللغة الرديئة فإنما تكون نظرته إلى الكون رديئة... ولكننا نقصد إلى إحياء التراث اللغوي في أنماطه المعروفة والبعيدة غير المستعملة لجعله وسيلة للاتساع في الاستعمال محادثة وكتابة.

فالعناية بالتراث ((ليس عملاً تاريخياً ماضوياً بقدر ما هو عمل حياتي، مستقبلي... والأمر لا يمكن أن يبقى، كما هو الآن، في حدود الوفاء النظري له والإشادة العاطفية به... وإنما هو كذلك أو مثل ذلك في الانتفاع به والوفاء لأنفسنا من خلاله... إنه ليس زينة، ولكنه سلاح ... وليس تباهياً وإدلالاً ولكنه مثل ذلك نوع من الإعداد، ولون من كسب الثقة بالنفس))[٢]، كما قال المرحوم الدكتور شكري فيصل. ويظل ((التراث هو التراث نفسه، لا يتكرر ولا يتعدد... لكن معرفته هي المتعددة بقدر ما تتعدد البنى الفكرية التي بها يقرأ التراث))[٣].

وحين يقدم التراث اللغوي بأنماطه المتنوعة والثرية ذاته بين يدي المعاصرين فإنما يندمج بوظائف شتى للاستجابة لها كي يتحقق النفع المليء بالإمتاع والفائدة. فالرجوع إلى النوادر وتأملها وتدبرها يعني وضع اللفظ في موضعه

---

[1] ديوان شعر المثقب العبدي ٢١١ ـ ٢١٢.
[2] انظر مجلة العربي ـ عدد ٢٧٠ ـ مايو ١٩٨١م ـ ص ٦٢.
[3] تراثنا كيف نعرفه ـ ص ٧ ـ حسين مروة ـ مؤسسة الأبحاث العربية ـ ط١ ـ ١٩٨٥م.

الأصلي لمعرفته، ثم يضعه الناس حيث يحتاجون إليه. وهذا كله ما يتوافق مع النظرية الألسنية أو السيميائية الحديثة في الوقت الذي يثبت سمة متميزة من سمات لغتنا الجميلة.

ومن ثم تصبح العلاقة بين المعاصرة والأصالة علاقة نامية ومفيدة؛ ويصبح اللسان العربي مادة جمالية ولغوية للأدب والحياة، وهو ما سنتحدث عنه في القسم الثاني.

القسم الثاني:
جمالية اللسان في اللغة والحياة

ما امتدح شيء كما امتدح اللسان؛ وجمال اللسان في فصاحته؛ والأجمل منه الصواب في قول الحق والارتقاء في التعبير عن قضايا المعرفة... ولكن لما صار الكلام شيئاً للسان في اللغة والمعرفة والحياة عزمت على الكتابة في موضوع "جمالية اللسان في اللغة والحياة". فإذا استقام اللسان ـ كما أرى ـ استقام كل شيء فينا، وإذا اعوجّ اعوججنا. ولهذا سأبدأ بمفهوم جمالية اللسان في اللغة؛ وأعقبه بجماليته في الحياة؛ واقفاً في البداية عند قيمته ومنزلته.

١ـ جمالية اللسان في اللغة:

يعد اللسان من أهم أدوات التعبير عن الذات والمجتمع في الحياة والفن والأدب والنقد؛ بل في قضايا المعرفة كلها. وهو الوسيلة اللغوية الأعظم نفعاً من بقية اللغات التي اخترعها الإنسان لذلك؛ كلغة الإشارة والرمز والإيماء.. والرسم والنّحت والنقش... ولغة الأيدي والعيون والأنف والجسد... ولغة الألوان والتصوير والموسيقى..[1].

فمنذ أن خلق الله آدم وعلّمه الأسماء كلها؛ خَلق معه المعرفة والكون وجعله ناطقاً دون مخلوقاته ليعبر عمّا يحس به ويرى ويسمع... ولما بث منه رجالاً كثيراً ونساءً بلبل ألسنتهم لتكون معجزة على الخَلْق؛ بقوله تعالى: [ومن آياته خَلْقُ السموات والأرض، واختلافُ ألْسِنَتِكم وألوانِكم][2].

ولهذا كان إرسال الرسل والأنبياء بألسنة شعوبها؛ لقوله تعالى: [وما أرسلنا من رسولٍ إلا بلسان قومهِ ليبين لهم][3].

---

[1] راجع ما تقدم ص ١٥ وما بعدها.

[2] سورة الروم ٢٢/٣٠.

[3] ـ سورة إبراهيم ٤/١٤. واللسن في الآية يعني اللغة، في الوقت الذي يدل على اللهجة.

ومن هنا نفهم إشارة أبي نواس في قوله الذي يمدح به أحد رجالات مصر؛ حين رغب في استعارة ألسن الأمم ليمدحه فيها[1]:

كَلَّ لساني عن وصفِ مَدْحِك يا بْـ

ـنَ الصِّيد واستُضعِفت قُوى هممي

ولستُ إلا مُعذَّراً لو استَنْـ

ـطقْتُ فيه عن ألْسُن الأُممِ

فاللسان غدا اللغة التي يعبر بها كل قوم عن مقاصدهم وأغراضهم ومشاعرهم؛ وغدت معرفة ألسنة الآخرين واحدة من قضايا المعرفة اللغوية؛ وسبيلاً إلى معرفة الآخر؛ ولهذا قال المتنبي في وصف الجيش لكثرة الأمم المتغايرة الألسن فيه[2]:

تجمَّعَ فيه كُلَّ لِسْنٍ وأُمَّةٍ فما تُفْهِمُ الحُدَّاثَ إلا التراجمُ

فاللسان أداة نطق اللغة؛ فصار اسماً لها؛ مثلما أصبح الناطق علماً على الإنسان من دون المخلوقات؛ فإذا أصبح بليغاً سمي بالمِنْطيق كما في قول حميد بن ثور[3]:

اليومَ تُنْتَزَعُ العصا من ربِّها ويلوكُ ثِنْيَ لسانِه المِنْطيقُ

---

[1] ديوان أبي نواس ٥٠٠.

[2] ديوان المتنبي ٣٨٥/٣، والتراجم: جمع ترجمان

[3] ديوان حميد بن ثور ١١٣ وانظر ديوان طرفة بن العبد ١٣٩ بيت ٢٣ و١٧٩ بيت ١٥.

بل إن اللغة العربية ما عرفت في القرآن إلا باسمه، ولم يرد فيه لفظ اللغة دلالة عليها؛ كقوله تعالى: [وإنه لتنزيلُ رب العالمين، نَزَلَ به الرُّوحُ الأمينُ، على قلبك لتكونَ من المنذِرين بلسانٍ عربيٍّ مُبين][1].

وكان الشعر المجال الفني الأول للسان العربي، فهو مادة اللغة وجمال الصورة، وبديع الفكرة؛ وهو ديوان العرب إليه يصيرون، وعنه يصدرون... وهو مادة لغوية كبرى لتفسير القرآن الكريم. وكان الرائد في هذا المجال عبد الله بن عباس (رضي الله عنهما) حين قال: "الشعر ديوان العرب؛ فإذا خفي علينا الحرف من القرآن الذي أنزله الله بلغة العرب رجعنا إلى ديوانها فالتمسنا معرفة ذلك منه"[2].

وحين نشأت الدراسات القرآنية المتعلقة بالقراءات القرآنية، وظهر علم التجويد كان العرب يضَعون بعملهم هذا أول أساس لمفهوم علم "اللسانيات" الذي اشتُهر في عصرنا... وإذا كان هذا العلم قد تطور بعيداً في الغرب، وغاب عنا فإننا نذكر أنه ليس العلم اللغوي الوحيد المرتبط باللسان، والذي سبق إليه أجدادنا الأفذاذ؛ وكتاب (العين) للفراهيدي، و(الكتاب) لسيبويه، و(الخصائص) لابن جني من أعظم الأدلة على ذلك.

وما من أحد يشك في أن قصائد الشعر قد خَلَّدت أصحابها؛ ولكنها خلَّدت في الوقت نفسه اللسان العربي الفصيح؛ وعلى ذلك قول كعب بن زهير في أبيه[3]:

وأدركْتُ ما قدْ قال قبْلي لدَهْرِهِ

زهيرٌ، وإنْ يَهْلِك تُخلَّدْ نواطقُهْ

وكذلك خَلَّد الأجداد في مؤلفاتهم المعجمية لغتنا؛ وأثبتوا ثراء دلالتها وقدرتها على استيعاب أي شيء نحتاج إليه؛

---

[1] سورة الشعراء ٢٦/ ١٩٢-١٩٥.

[2] سؤالات نافع بن الأزرق ٥.

[3] شرح ديوان كعب بن زهير ١٩٠ وانظر ديوان النابغة الذبياني ١١٢.

سواء في طبيعتها، أم في طريقة بنيتها وقوانينها المرنة على استقبال كل وافد إليها من اللغات الأخرى وإخضاعه لمقاييسها... مهما تخلَّفَ أبناؤها عن ركب التقدم الحضاري...

ولا شيء أدل على هذا مما نراه فيها عن مادة (اللسان)؛ فاللسان ـ لغة ـ عضو النطق، وجارحة من جوارح الجسد... وهو لفظ يُذكَّر ويؤنَّث؛ فإذا أريد الكلمة واللغة والرسالة والمقالة؛ ونحو هذا مما يؤنث أنّثَ؛ كقول أعشى باهلة في كلمة سيئة أتته[1]:

إنّي أتتني لسانٌ ما أُسَرُّ بها ... من عَلْوَ، لا عَجَبٌ فيها ولا سَخَرُ

وكقول شاعر آخر حين أراد بها الرسالة[2]:

أتَتْني لسانُ بني عامر ... أحاديثُها بعدَ قولٍ نُكُرْ

وإذا استعمل لفظ اللسان على معنى الكلام ذُكّر، وهكذا ورد في القرآن الكريم سواءً جاء مفرداً أم مجموعاً؛ كقوله تعالى: [فإنما يسرناه بلسانك لعلهم يتذكرون][3]، وعنى به كلام القرآن الكريم، ولم يَرِد فيه مؤنثاً. وقد جاء مذكراً في قول الحطيئة[4]:

نَدِمْتُ على لسانٍ فات منِّي ... فليتَ بيانَه في جَوْفِ عِكْمِ

واللسان: مفرد، والجمع ألْسنة ـ بكسر السين ـ إذا ذُكّر، وألْسُن ـ بضم السين ـ إذا أنّث؛ والقوم لُسْن، والرجل لَسِن؛ إذا كان فصيحاً؛ والمرأة لَسِنة ـ أيضاً ـ مصدر؛ والفعل لَسَنَ (بسكر السين وفتحها) والمضارع يَلْسُن لَسْناً ولِسْناً ولَسْنا... وإذا أريد باللسان اللغة فهي (لِسْن) كما ورد عليه قول المتنبي

---

[1] سورة الدخان ٥٨/٤٤.

[2] اللسان (لسن) وانظر المفضليات ٢٣٥ ق ٥٢ وشعر زيد الخيل ١٤٢.

[3] سورة الدخان ٥٨/٤٤.

[4] ديوان الحطيئة ١٩٧. والعِكْمُ: وعاء كالجوالق يتخذ لحفظ حاجات المرأة.

قبل قليل.

وقد غنيت الاشتقاقات في مادة اللسان؛ فاتسعت الدلالة؛ فالفعل لَسَنه: كلّمه؛ ولسَنَه يَلْسَنُه لَسْناً: أخذه بلسانه كقول طرفة بن العبد[1]:

وإذا تُلْسُنُني أَلْسُنُها ... إنَّني لستُ بمَوْهونٍ فَقِرْ

ولاسَنَه: ناطقه؛ وألْسَن عني: أبلغ؛ وأنذر، وذكّر، والإلْسَان: الإبلاغ؛ كقول عدي بن زيد[2]:

بل ألْسِنُوني سَراةَ العَمِّ إنكمُ ... لستُمْ من المُلْكِ والأبْدال أغْمارا

وتلَسَّن عليه: كذب، وتقوَّل الأقاويل، ورجل مَلْسون: كذَّاب، وهو حُلْو اللسان بعيد الفَعال؛ يُقرِّب لك البعيد ويبعد القريب في القول دون الفعل، كقول عُمارة بن عَقيل بن جرير[3]:

أمَلْسونٌ خليلُك من عُقيلٍ ... كما القُرشيُّ مَلْسونٌ ظنونُ

ـ وسمّي اللسان بأسماء كثيرة لبيانه ونفاذه وحدّته، وقيامه بما لم يقم به السيف، منها (المِذْوَد) كما في قول حسان بن ثابت[4]:

لساني وسيفي صارمان كلاهما ... ويبلغ ما لا يبلغ السيف مِذْوَدي

---

[1] ديوان طرفة بن العبد ٦٠. الموهون: الضعيف. فقِر: ضَعيف فِقار الظهر، وهو كناية عن ضعف النفس وعدم احتمال الأذى.

[2] ديوان عدي بن زيد ٥٣. العم؛ ـ هنا ـ: الحي. الأبدال: الشرفاء والكرماء. الأغمار: الجاهلون.

[3] خَلْق الإنسان ١٨٩.

[4] ديوان حسان بن ثابت ١٣٢.

و(المِقوَل) و(المُخَسَّل) أو (المُحَسَّل) كما في قول العجاج[1]:

ما كنتُ من تلك الرِّجال ذي رأيهمْ والعاجز الخُذَّل المُخَسَّل

عن هيْج إبراهيمَ يوم وجَعْل نفسي معه المَرْحَل ومِقْوَلي

ظاهرة الترادف[2]، فهو اللَّقلق كما في قول الرسول الكريم: [مَنْ وقى شر لَقْلَقِه وقَبْقَبِه وذَبْذَبِه فقد وجبت له الجنة][3]، وهو الذَّليق والحليف والصَّنَع.. لفصاحته وحسن لهجته وقوته، وحدّته... ولهذا امتدح الخطيب المُفَوَّه والمِصْقع كقول الشاعر[4]:

خِرْقٍ إذا رَقِيَ المنابرَ ويزينُها بفصاحة وبَيان مِصْقَعٌ

وارتبطت فصاحة اللسان بجهارة الصوت عند صاحبه، فقيل: رجل جهير؛ أي بليغٌ حسنُ اللسان حديدهُ؛ كقول الشاعر[5]:

يكسو المنابرَ والأسِرَّة ويزينها بجَهارةٍ وبَيان بَهْجَة

---

[1] ديوان العجاج ٢٨٩/١ وانظر فيه ٢٥٠ والمرحل: الرحيل، وانظر المفرد العلم ٤٤ وفيه عن ضَمْرَة بن ضَمرة: "المرء بأصغريه؛ قلبه ولسانه وأنشد قول الشاعر:

وما المرء إلا الأصغران فقلبه ومِقولُهُ، والجسم خَلْقٌ مُصَوَّرُ

وانظر فيه ٧٣ وانظر الأغاني ١٣٧/٤ في قول حسان

[2] راجع ما تقدم ص ٣٨.

[3] الجامع الصغير من أحاديث البشير (رقم ٩٠٨٣) وانظر (رقم ١٤٣٣) وخلق الإنسان ١٨٧.

[4] خلق الإنسان ١٨٦. الخَرق: السمح الكريم

[5] المرجع السابق.

والناطق: البليغ اللسان؛ ولهذا أطلق على الإنسان (الحيوان الناطق)... فإذا وصف الناطق بالمُرَقَّش دخل في كلامه تزيين القول بالباطل، كقول الحارث بن حلزة[1]:

أيها الناطق المُرَقَّش عنا   عند عمرٍو، وهل لذاكَ بَقاءُ

بهذا كله اختزن اللسان جماليات شتى حفظتها اللغة العربية لنا؛ وبها تميزت وإذا كنا قد أشرنا إلى شيء منها في باب الفصاحة والبلاغة كان لزاماً علينا أن نشير إلى شيء آخر مما تعرض له اللسان من أمراض وعيوب خَلْقية ومُكتسبة...

ففي اللسان (الصُّرَدان) وهما عرقان أخضران يستبطنان اللسان، وفي أصلهما عُقدتان يقال لهما العُنْدُبَتان، والعُمَيْمِران عظمان في أصله...[2] فإذا أصيبا بعلّة مَنَعت صاحب اللسان من الفصاحة، وإلا فهو ذَلِقٌ حديد، كما في هجاء يزيد بن الصَّعِق للنابغة الذبياني[3]:

وأيُّ الناس أغْدَرُ من شآم   له صُرَدَانِ مُنْطلِقُ اللسان

ـ ومن أمراض النطق في اللسان (الحُكْلَة) وهي كالعُجْمة، وصاحبها لا يُبين في الكلام؛ ومثلها (الغُتْمة والبُهْمة ـ والمذكر منهما الأغتم والأبهم)... والطُمْطماني واللَّخْلخاني من لا يُفْصح ولا يبَين كلامه... والجَلْجال: مَنْ يردد الكلمة في فمه فيثقل لسانه بإخراجها، والألْثغ والأنثى لثغاء، والألْيَغ مثله[4]، وهو من لا يُتِمُّ رفع لسانه في الكلام.

---

[1] ديوان الحارث بن حلزة ٢٤.

[2] انظر خلق الإنسان ١٨٢.

[3] ديوان النابغة الذبياني ١١٣.

[4] انظر خلق الإنسان ١٨٢-١٨٣ ومجالس ثعلب ٤٢٩.

ومما قاله أبو نواس في الألثغ[1]:

وإبأبي ألْثغَ لاججْتُهُ فقال في غُنْج وإخْناثِ

لما رأى مني خلافي له: كم لقيَ الناثُ منَ النَّاثِ!!

والأبكم، والأنثى بَكْماء، وهو العَيُّ بالجواب، والعييُّ من يَعْجِز لسانه عن النطق فيردد الكلام في فيه دون إبانةٍ، والصمت أفضل له كما قال مالك ابن سلمة[2]:

وفي الصمت سِتْرٌ للعَييّ وإنما صحيفةُ لُبِّ المرءِ أن يتكلَّما

ونذكر في هذا المقام أن رجلاً يقال له (باقل) صار مثلاً في العي، بينما صار سحبان وائل مثلاً في البيان، وإليهما أشار حميد بن ثور حين وصف رجلاً جاءه فظنه لما رآه كسحبان، فلما فتح فاه ليتكلم كان كأنه باقل عِيّاً وحَصَراً، فقال[3]:

أتانا ولم يَعْدِلْه سحبانُ وائلِ بَياناً وعلماً بالذي هو قائلُ

فما زال عنه اللَّقْمُ حتى كأنَّه منَ العِيّ لمَّا أنْ تكلَّمَ باقلُ

أما الخَرَس فهو عدم النطق؛ لمرض، أو لعلة أخرى فطرية أو طارئة، خَرِسَ خَرَساً، والخُرْس: الصُّمُّ، وهو جمع، كقول ليلة بنت حسان بن ثابت[4]:

---

(1) ديوان أبي نواس ٢٥. كم لقي الناث...: أي كم لقي الناس من الناس.

(2) حماسة البحتري ٣٦٧ وانظر شرح شعر زهير بن أبي سلمى ١٥٣. وفي مقام ذكر (العيي) فقد وصف الشعراء أطلالهم بالعي، وهو معروف في أشعار الجاهليين خاصة؛ انظر مثلاً: ديوان النابغة الذبياني ١٤ وشرح شعر زهير ١٦١ وديوان بشر ١٠٩ (لم تستطع الإجابة) وكذا فيه ١٣٨.

(3) ديوان حميد بن ثور ١١٧ واللقم: سرعة الأكل والمبادرة إليه. وانظر ـ مثلاً ـ: شرح ديوان كعب ٦٠.

(4) ديوان حسان بن ثابت ٣٢٩ والخنا: الفحش. وقال طرفة في صفة الأطلال

مقاويلُ بالمعروف خُرْسٌ عن الخنا

كرامٌ يعَاطون العشيرة سُؤْلَها

والأخرس للمذكر، والأنثى خرساء، وعليه قول أبي نواس في صفة الأطلال[1]:

رَبْعُ البلى أخْرسُ، مُسْتَلَبُ المَنْطق، سِكِّيتُ عِمِّيْتُ

واللسان المُفْحَم والفحوم" العَييُّ؛ وقيل: هو الذي لا يتكلم أصلاً؛ كالأخرس كقول حسان بن ثابت[2]:

لسانك مُفْحَمٌ، ونَداكَ دُوْنٌ وإنَّ هِجَاك لا يَعْدُو قفاكَا

ـ ومن عيوب النطق في اللسان (القدَامة): وهو ثقل اللسان بالكلام؛ ورجل قدْم وامرأة قدْمة؛ ومثله (الألفُّ) للرجل و(لفَّاء) للأنثى... على حين أن (الرُّتَّة) هي ترداد الكلام في الحنك، فلا يكاد يخرج... أما (التَّمتام) فهو مَنْ ثقل كلامه في ترديد التاء، كقول ربيعة الرقي[3]:

ووصفها بالخَرَس (الديوان ١٦٤):

(1) ديوان أبي نواس ٧٤. وعِمِّيْت: مبالغة من العمى. وسِكِّيت: مبالغة من السكوت. وانظر ديوان امرئ القيس ١٠٥.

(2) ديوان حسان بن ثابت ٣٠٠.

(3) شعر ربيعة الرقي ٦٠ وهو في الأغاني ١٦/ ٢٥٤ وقال زهير في اللَّقف (شرح شعر زهير ٢٦١):

الأرَت من الرجال: الذي في لسانه عُقدة وحُبْسَة، ويعجل في كلامه فلا يطاوعه، يقال: في لسانه رُتة (المغرب: رتت) ومثله اللجلجة؛ ولجج الشيء في فيه: أداره؛ كقول زهير بن أبي سلمى:

انظر شرح شعر زهير ٢٣٧ واللسان ـ لجج.

ولا يَحسِبُ التَّمْتام أني هجوتُهُ ولكنني فضَّلْتُ أهلَ المكارم

ومستنبهٍ من نومهٍ قد أجابني بَرجْعَيْن من ثِنْيَي لسانٍ مُلَجْلِجِ

قد أورث السيرَ وقْراً في مسامعه وفي اللسان إذا استفهمته لففا

والفأفأة ومثلها التأتأة، هي إخراج الكلمة إلى الشفاه ثم ردّها مراراً، فلا يفصح بها صاحبها.. ورجل فأفاء، وتأتاء، وامرأة فأفاءة وتأتاءة...

واللَّوْث: عدم إخراج الكلام إلا بعد جَهد شديد... ورجل ألوث وامرأة لوْثاء.. والعَقد: انعقاد اللسان في الكلام لعلّة، أو لغيرها... والرجل أعْقد والمرأة عَقداء؛ والعُقدة: حُبْسة في النطق. وفي كتاب الله ما يفسر هذا على لسان موسى حين دعا: [واحلُلْ عُقدةً من لساني][1]. والنُّبُوُّ في الكلام: عدم مطاوعته، ومزايلته عن لسان صاحبه وابتعاده عنه.. فيكِلُّ اللسان ويتعب؛ كقول حسان بن ثابت[2]:

لعَمْرُ أبيكِ الخَيْرِ يا شَعْثَ ما نبا عليَّ لساني في الخُطوبِ ولا يدي

فالنبوُّ من نبا ينبو، ومثله الإرتاج من أُرتج وارتجَّ... فإذا استُغلق الكلام على اللسان قيل أُرتج عليه. وربما أُرتج على البلغاء كسيدنا عمر؛ الذي استغلق عليه اللسان في الصلاة[3]، والخطيبِ الفارس الشاعر ثابت قُطْنة. وكان ثابت صعد المنبر مرةً فرام الكلام فتعذر عليه؛ فقال: سيجعل الله بعد عسر

---

(1) سورة طه ٢٠/٧٢.

2 ديوان حسان بن ثابت ١٣٢. شعث: ترخيم شعثاء، وهي امرأة كان يذكرها في شعره، قيل: إنها زوجته من بني خزاعة، انظر ديوان حسان ٧١ حاشية (٦).

(3) انظر اللسان ـ رتج.

يسراً؛ ثم أرتج عليه وعَيَّ بياناً؛ فقال: وأنتم إلى أمير فعَّال أحوجُ منكم إلى أميرٍ قوَّال وأنشد:

وإلاَّ أكُنْ فيكم خطيباً فإنني   بسيفي إذا جَدَّ الوغى لخطيبُ

ونزل. فبلغت كلماته هذه خالد بن صفوان؛ فقال: والله ما علا المنبر أخطبُ منه في كلماته هذه[1].

والاستعجام شبيه بالإرتاج من بعض الوجوه؛ فهو حُبْسة في اللسان، وعدم إفْصاحٍ وبيانٍ في الألفاظ والحروف، وعدم قدرة على بيان مراد صاحبه... وقد يكون خَرَساً.. والرجل أعْجم وأعْجمي من العرب وغيرهم، والأنثى عَجْماء. وقد أنشد رؤبة فيمن لا يحسن إنشاء الشعر فقال[2]:

والشعر لا يَسْطِيْعُهُ مَنْ يَظْلمُهْ   يُريدُ أنْ يُعْرِبَهُ فيُعْجمُه

واستعجمت الأطلال عيت جواباً وخرست كما في قول امرئ القيس[3]:

صَمَّ صَدَاها، وعفا رسْمُها   واستعجمت عن مَنْطق السائل

وقال العجاج فيمن لا يحسن الكلام؛ في معرض تشبيهه للزِّق المحشو باللبن بالشيخ المعمم[4]:

يَحْسِبُه الجاهلُ ما لم يعلما   شيخاً على كُرسيِّهِ مُعَمَّمَا

---

(1) الأغاني ٢٦٣/١٤ وانظر كتابنا: قراءات في أدب العصر الأموي ٤١٩، وافتخر عمرو بن كلثوم بفصاحة أبيه وبلاغته في الخطابة؛ حين يعيي الفُصحاء (الديوان ١١٢):

وانظر ديوان أوس بن حجر ١٠٢.

(2) مجموع أشعار العرب ١٨٦ وانظر مثلا: ديوان عنترة ٢٦٨.

(3) ديوان امرء القيس ٢٥٥ وانظر ديوان النابغة ٢٠٢ وديوان عنترة ١٨٢ والمفضليات ٣٧٣.

(4) ديوان العجاج ٣٣١/٢.

لو أنَّه أبانَ أو تكلّما لكان إيّاهُ ولكنْ أعْجمَا

وأبي الذي حمل المئين ـمعروف إذْ عيَّ الخطيبُ
وناطقُ الـ المِقْصَلا

وما دمنا نتحدث عن الاستعجام فلا يضيرنا أن نسوق ـ في هذا المقام ـ ما وقع بين حماد الراوية وأبي العطاء السنديّ؛ فقد دخل أبو العطاء على حماد وصحبه فقال لهم: "مرهباً مرهباً، هياكم الله!! فقال له حماد (الراوية): كيف بَصرك باللُّغَز يا أبا عطاء؟ قال: هسن"[1].

ويبدو لي أن لغة الاستعجام هذه قد شاعت على ألسنة الناس في أيامنا... فما أكثر الذين يبدلون أصوات حروف بأصوات أخرى في غير موضعها فنسمع اللزيز مكان اللذيذ، والسأسأة مكان الثأثأة.. وهلمّ جرا. وما يقع في ألسنة الناس اليوم لا يدخل في ظاهرة الترقيق أو التفخيم، ولا ظاهرة الإعلال والإبدال... ولا ظاهرة التصحيف والتحريف... ولا يمت بأي صلة لما عرف باللهجات العربية التي تناولها الدارسون في أبحاثهم، وهي التي رصدها المرحوم الدكتور عبد العزيز مطر في بحثه (البحوث المعاصرة في اللهجات العربية)[2]، وكان مجمع اللغة العربية بدمشق قد استحدث برنامجاً سماه: "عثرات الأقلام"[3]، في وقت مبكر جداً.

ولعل ذلك كله يثبت ما تتميز به اللغة العربية من ثراء في المفردات ودلالتها اشتراكاً وترادفاً؛ وهي تساعد العربي على التزوّد منها كيف يشاء.

ومن هنا ننتقل إلى جمالية اللسان في الحياة.

٢ ـ جمالية اللسان في الحياة:

---

(1) الشعر والشعراء ٢/٧٦٧.

(2) انظر البحوث المعاصرة في اللهجات العربية ١٠.

(3) انظر البحوث المعاصرة في اللهجات العربية ١٠.

اللسان مركب ذلول[1]، للإنسان إن خيراً فخير وإن شراً فشر؛ فهو الميزان الدقيق في الحكم على صاحبه؛ ولهذا قيل في المثل: "مقتل الرجل بين فكيه"[2]، وكم قتل اللسان صاحبه[3]، ولهذا قال صالح بن عبد القدوس[4]:

وإنَّ لسانَ المرءِ مفتاحُ قلبه إذا هو أبدى ما يُجِنُّ من الفمِ

فاللسان خلقه الله مادة للتذوق ووسيلة للنطق والبيان عما يحوك في الصدر ويخطر في البال من قضايا المعرفة، وغيرها. لهذا دعا إبراهيم ربه أن يجعل لسانه لسانَ ثناء؛ فقال سبحانه: [واجعل لي لسان صِدْقٍ في الآخرين][5]... فإذا نطق أصاب؛ فجمال الرجل فصاحة لسانه [6]. وقد قال زهير في هذا المقام[7]:

وكائنْ ترى مِنْ صامتٍ لكَ مُعْجِبٍ

زيادتُه أو نقصُه في التكلم

لسانُ الفتى نِصْفٌ ونصفٌ فؤادُه

فلم يَبْقَ إلا صورةُ اللحم والدم

وإن سَفاه الشيخ لا حِلْم بَعْدَه

وإنَّ الفتى بعد السَفاهةِ يَحْلُم

---

(1) مجمع الأمثال ١٨٨/٢.

(2) مجمع الأمثال ٢٦٥/٢.

(3) نوادر المخطوطات/ مجلد٢/ ٢٧٥.

(4) حماسة البحتري ٣٦٧ وانظر ديوان عنترة ٢٩٥.

(5) سورة الشعراء ٨٤/٢٦.

(6). انظر الجامع الصغير من أحاديث البشير النذير (رقم ٣٥٩٩) وانظر فيه (رقم ٣٦٢٥ و٣٦٢٦ و٣٧٢٠).

(7) شرح شعر زهير ٣٧. وانظر المفرد العلم ١٢٢.

ولما كانت للسان هذه المنزلة في حياة الناس قديماً وحديثاً فإن الله خَلَق له ثلاثة حُرّاس؛ العقلَ والأسنانَ والشفتين؛ لقوله تعالى: [أَلَمْ نجعلْ له عينين ولساناً وشفتين وهديناه النّجْدين][1]. فإذا لم يخزن المرء عليه لسانه ندم كما قال امرؤ القيس[2]:

إذا المرءُ لم يَخْزُن عليه لسانَه فليس على شيءٍ سواه بخَزّان

وقال صالح بن عبد القدوس[3]:

واحفظ لسانَك أن تقول فتُبْتلى إنَّ البلاءَ مُوَكَّلٌ بالمنطق

وهذا البيت مستمد من حديثين لرسول اللهρ الأول: [البلاء مَوَكل بالمنطق] والثاني: [أحب الأعمال إلى الله حفظ اللسان][4]. ولكن بعض القوم لا يرعوون للمنطق، ويظنون أنهم يصيبون في كل ما يقولون، وفيهم قال زهير[5]:

وذي خَطَلٍ في القول يحسِبُ أنَّه مُصيبٌ فما يُلْمِمْ به فهو قائلُهْ

بينما يدعو العاقل على نفسه إذا جرى لسانه بالسوء، كما قال امرؤ القيس في لسانه[6]:

وغيرُ الشقاءِ المُستبينِ فليتني أجَرَّ لساني يومَ ذلكُمُ مُجِرْ

فاللسان ينكأ الجراح ويغلظ القلوب، ويثير العداوة بين الناس، ولا يمكن للنفوس أن تهدأ أو تغفر لمن أخطأ بحقها كما

---

[1] سورة البلد ٩٠/ ٨-١٠.

[2] ديوان امرئ القيس ٩٠.

[3]. حماسة البحتري ٣٦٨.

[4] الجامع الصغير - (٣٢١٩ و٢٠٢) على ترتيب ورود الحديثين، وانظر فيه (رقم ٢٦٢ و ١٦٥٢ و١٦٥٣ و١٧٥٠ و٣٢١٧-٣٢٢٠).

[5] شرح شعر زهير ١١١.

[6] ديوان امرء القيس ١١٢ وانظر فيه ١٦٢.

قال لبيد بن ربيعة[1]:

لستُ بغافرٍ لبني بَغِيْضٍ سَقاهَتَهُم ولا خَطَلَ اللسانِ

ولهذا كله فإن العاقل من وضع لسانه في الذب عن المكارم والدعوة إلى الفضائل كما قال زهير صفة شعره[2]:

وذَبِّي عن مآثرَ صالحاتٍ بما لي والعوارمِ من لِساني

وإذا ما أكره الحليم على مقابلة لسان السفيه، وما يلقيه من الأذية فعليه ألا يقابله بالمثل كما قال ذو الإصبع العدواني[3]:

ولا لساني على الأدنى بمُنطلقٍ

بالفاحشاتِ، ولا فتكي بمأمونِ

فاللسان وضع في فم الإنسان ليكون أداة ذبّ عن الأخلاق والمحارم والأمة، فهو يبني ولا يهدم... وكان الجاهليون قد أدركوا قيمة اللسان في خدمة قبائلهم ومجتمعهم، فأوقفوه على مصالحهما كما دافعوا بأنفسهم عنهما كما قال زهير في مدح هرم بن سنان، فهو فارس القوم يدفع عنهم الشر بيده ولسانه[4]:

ومِدْرَهُ حَربٍ حَمْيُها شديدُ الرِّجَامِ باللسان يُتَّقَى بهِ وباليدِ

---

[1] شرح ديوان لبيد ٣٢٨ وانظر شرح شعر زهير ١٥٣ و١٧٨ و٢٦٢ وديوان امرئ القيس ١٨٥ والمفضليات ١٦٠ و٢٠١ و٣٨٦.

[2] شرح شعر زهير ٢٦٢ والعوارم: الشدائد وانظر ديوان طرفة ١٠٦ وديوان المتنبي ٤٥/٢.

[3] المفضليات ١٦٠ وانظر ديوان عروة ٣٦ وطرفة ١٣٩ والنابغة ١١٢.

[4] شرح شعر زهير ١٦٨ وانظر ديوان النابغة الذبياني ١٥١ و١٦٨ و١٧٤ وديوان عنترة ٢٩٥.

وهاهو ذا لبيد بن ربيعة يتغنى لسانه بمآثر قومه، ويجعله في المقام الشديد كالنبل الذي يرشق به أعداءهم فيقول[1]:

ومقامٍ ضَيِّقٍ فَرَّجْتُهُ بمقامي ولساني وجَدَلْ

إذ دعتني عامر أنصرها فالتقى الألسن كالنَّبْلِ الدُّوَلْ

وكلنا يعرف أن الشعراء صاروا سفراء قومهم يدفعون عنهم كل أذى كما نجده في رحلة النابغة إلى الغساسنة ومدحهم لتخليص أسرى قومه، وحباهم به كما يقول[2]:

حَبَوتُ بها غسَّانَ إذ كنتُ لاحقاً

بقومي، وإذ أعْيَتْ عليَّ مذاهبي

وظلت مهمة اللسان منوطة بالدفاع عن القيم والفضائل في صدر الإسلام، وشجع الرسول الكريمρ شعراء الإسلام على الدفاع عن الدين والمسلمين، فصار الشعر سلاحاً من أسلحة الدعوة الإسلامية. وغدا لسان حسان أشد وقعاً على المشركين من بقية شعراء الدعوة، وكان الرسول يستنشده ويطيل الاستماع إليه ثم يقول: [لهذا أشد عليهم من وقع النبل][3]، وطفق حسان يفتخر بلسانه فيقول[4]:

لساني صارم لا عَيْبَ فيه وبَحْري لا تكدِّرُهُ الدِّلاءُ

ويرى أنه حين وضع لسانه في مدح الرسول والمسلمين لم يكن مخطئاً فقد وضعه في الموضع الصحيح فيقول في مدح الرسول وقومه[5]:

---

[1] شرح ديوان لبيد ١٩٣ وانظر ديوان أوس بن حجر ١٢٣ والأعشى ٣٣٤ و٣٦٤.

[2] ديوان النابغة ٤٨.

[3] انظر الأغاني ٤/١٤٣ وانظر فيه أخبار حسان كلها ١٣٤،ومابعدها.

[4] ديوان حسان ٧٧.

[5] ديوان حسان ٢٤٠.

أهْدي لهم مِدَحِي قلبٌ يؤازرُه

فيما يُحِبُّ لسانٌ حائكٌ صَنَعُ

فإنهم أفضلُ الأحياءِ كلّهِمُ

إنْ جَدَّ بالناس جِدَّ القول أو سمعوا

وكل من أساء بحق الرسول والمسلمين رجع عن غيّه بعد أن سدر فيه إلى وقت معلوم، فلما تبيّن خطأه عاد فاعتذر عما فرط منه، وجعل لسانه يرتق ما فتقه وأفسده من قبل كما نراه في اعتذار عبد الله بن الزِّبعري للرسول الكريم؛ فقال[1]:

يا رسولَ المَليكِ إنَّ لساني راتقٌ ما فَتَقْتُ إذ أنا بُورُ

وبناء على ما تقدم يصبح لزاماً على كل فرد منا ألا يرمي بكلامه كيفما اتفق وكأنه الأعمى الذي لا يدري كيف يمشي كما قال طرفة[2]:

إذا قُلْتَ، فاعلم ما تقولُ ولا تَقُلْ

وأنتَ عَمٍ لم تَدرِ كيف تقولُ

فنحن بحاجة إلى ألسنة فعالة بالخير، معبرة عن الفكر الخلاق المبدع، منطلقة باللغة الشريفة إلى آفاق الحياة، متوخية الإصابة تبعاً لكل مقام، وكل حال... مما تجعلنا نثني عليها وتفرض علينا احترامها والثقة بها كما أثنى كثير عزة على لسان مرثيه أبي بكر[3]:

نَمتْ لأبي بكرٍ لسانٌ تتابعَتْ بعارفةٍ منه فخصَّتْ وعمَّتِ

---

(1) شعر عبد الله بن الزبعري ٣٦. والبور: الفساد.

(2) ديوان طرفة ١٨٦.

(3) ديوان كثير عزة ٦٤.

وإذا كنا لا ننكر وجود الألسنة البناءة في حياتنا، والألسنة التي تعتذر عن زلاتها؛ فإنها تظل قليلة بالقياس إلى الألسنة الثرثارة المخادعة والمنافقة التي طغت على حياتنا... وهنا نذكر بالأقسام الثلاثة للسان؛ لسان "ساكت وسالم، وشاجب، فالسالم من قال الخير؛ والشاجب من قال سوءاً فهلك"[1]، والساكت من سلم بسكوته. ولكننا لا نرى إلا اللسان الشاجب أو نصادفه في مؤسساتنا العلمية والثقافية كأنه مخاريق لاعب. وأمثاله كثيرة همها النميمة والنقيق دون حاجة تذكر إلا شهوة أصحابها للكلام... وفضول أعينها لاستراق النظر فانطبق عليها المثل: "ربَّ عينٍ أنَمّ من لسان"[2].

فهذه الألسنة الثرثارة لا تزيد حياتنا إلا أعباء جديدة؛ بفضل منطقها الفاسد ولغْوها الباطل، وكان صمتُ أصحابها أحسنَ لهم، كقول يحيى بن زياد[3]:

الصمتُ خيرٌ للفتى ... من منْطقٍ خَطِلٍ يَشينُهْ

وإني لأشفق من هؤلاء على المرأة التي اتهمت منذ القديم بثرثرة لسانها في البيت وعند الأبواب... وكان حميد بن ثور قد نزّه صاحبته عمّا تفعله الموصوفة بالثرثرة فقال[4]:

وليسَتْ من اللائي يكون حديثُها ... أمامَ بيوت الحي: إنَّ، وإنَّما

أحاديثُ لم يُعْقبنَ شيئاً وإنَّما ... فُرَتِ كَذِباً بالأمس قيلاً مُرَجَّما

ونحن لا ننكر أن لسان المرأة قد يسبق عقلها؛ ولا سيما

---

(1) مجالس ثعلب ٣٩٥ وانظر الجامع بصغير (رقم ٢١٠٨).

(2) مجمع الأمثال ٣١٤/١.

(3) حماسة البحتري ٣٦٥ وانظر ديوان المتنبي ٧/٢.

(4) ديوان حميد بن ثور ١٨. القيل: القول. المُرَجَّم: الذي لا يتحقق، وانظر مجموع أشعار العرب ١٤٤. وانظر ديوان أوس بن حجر ١٤.

إذا نافرت زوجها كما وقع لكعب بن زهير مع زوجه[1]:

بكرَتْ عليَّ بسُحْرةٍ وكَفَى بها جَهْلاً وطَيْشَ لسان تَلْحاني

ولكننا ننكر طيش لسان كثير من مثقفي اليوم الذين يهرفون بما لا يعرفون؛ ويعزفون كلامهم على قيثارة مُنَفّرة، فألسنتهم خواء، وأفئدتهم هواء، وثرثرتهم حمقاء.

وما أحسن ما قال الشاعر ابن الدُّمَيْنة في هذا المقام[2]:

وإن لساناً لم تُعِنْه لُبَانة كحاطبِ ليلٍ يجمعُ الرَّذْلَ حاطِبُهْ

ومهما يكن أثر هذه الألسنة الثرثارة في المجتمع، والمعرفة؛ فهي ألسنة مكشوفة لا تضرّ إلا أصحابها؛ وتبقى نكبة الأمة في خسارتها لجهد ضائع... ولكن الداهية الأعظم تكمن في الألسنة البليغة الفصيحة المثقفة... التي تسلّحت على أطوار التاريخ بفنون القول والمعرفة... وأساليب التسلق والنفاق والتملق،... والكذب والافتراء.

وازداد انحراف خُلُق هؤلاء حين تنكروا لقيم الأمة وثقافتها... ونهم من أصبح تابعاً لثقافة الآخر فينطق بلسانها ولغتها وعاداتها.

فهذه الألسنة قادرة على النفاذ إلى نفوس الناس وتخريبها؛ والتأثير فيها بمعسول الكلام ودماثة التصرف... ولاسيما أن حلاوة الألسنة وجاذبيتها جزء من دلالة (العَذَبة) في السان وهي طرفه، وحِدَّتها جزء من (أسَلَته) وهي آخر الطرف

أعاذِلَ لا آلوكِ إلاّ خليقتي فلا تجعلني فوقي لسانكِ مِبْرَدا

---

[1] شرح ديوان كعب بن زهير ٢١٣. تلحاني: تسبني وتشتمني. وانظر ديوان حاتم الطائي ٢١٧ فقد جعلت امرأته لسانها مبرداً عليه فقال:

[2] حماسة البحتري ٣٦٧. اللبانة: العقل. وانظر الجامع الصغير (رقم ٤٨٦١). ومن أحسن ما قيل في ذلك المقام قول طرفة (الديوان ٢٠٣):

وفي الكلامِ كلامٌ ما نطقتُ به إلا نَدِمتُ عليه حين أبديهِ

وإن ندِمتُ؛ فإني لست أرجعه وكيف أرجعه، والريح تَذْريهِ؟

الدقيق في اللسان؛ علماً بأن الأسَل (الرماحُ)[1]. أما عَكدتُه وعَكرته فهي جذره وأصله الغليظ.. فكأن اللسان عضو فيه صورة الدماثة وفيه صورة الكزازة والغلظة والافتراء... ولكل من أسمه نصيب...

فالألسنة المفترية المتلونة تزيف القيم وتهاجم أخلاق الناس... فتنبح عليهم لسبب أو دون سبب فأفواهها مفتوحة أبداً بالأذى[2]. وهذا ما نراه في قول النابغة حين استمد من صورة الكلب اللاهث النابح الذي لا يرد لسانه إلى فمه صورة للسانه الذي طال به النعمان[3]:

سأكْعَمُ كَلْبي أنْ يَريبك نَبْحُه وإنْ كنتُ أرعى مُسْحلانَ فحامرا

وكانت صورة الكلاب قد ارتبطت عند الجاهليين بالهجاء وغيره من أغراض الشعر[4]؛ ومن ثم ارتبطت بصورة الشعراء حتى قال فيهم عمرو ابن كلثوم، وكان مادحاً إياهم في الدفاع عن قبائلهم فقال[5]:

---

(1) انظر خلق الإنسان ١٨١ واللسان (أسل).

(2) انظر مثلاً ما قيل في مثل تلك الألسنة من الشعر القديم، وكيف تصدى الشعراء لها، كقول زهير (شرح شعر زهير ٧٨) فمن يتعرض له بلسانه فإنه سيعرق لحمه عن عظمه:

وانظر شرح ديوان لبيد ٣٢٨ والمفضليات ٢٠١ ق٤٠ و٣٨٦ ق١١٧ وديوان بشر ٤٢.

(3) ديوان النابغة الذبياني ٦٩. سأكعم كلبي: أي سأكف لساني. مسحلان وحامر: موضعان. وانظر كتابنا (مشهد الحيوان في القصيدة الجاهلية ٢٥٢).

(4) انظر كتابينا (الحيوان في الشعر الجاهلي ١٦٣ ومشهد الحيوان في القصيدة الجاهلية ٢٥٠).

(5) شرح القصائد السبع الطوال ٣٩٠. شذبنا: فرّقنا. القتادة: شجرة لها شوك، فإذا مُسَّت هاجت لشدة شوكها. وانظر الحيوان في الشعر الجاهلي ١٦٣ (حاشية ٢ و٣) وانظر ديوان الأعشى ٦٢.

وقد هَرَّت كلابُ الحيّ   وشَذَّبْنَا قتادَةَ مَنْ يلينا منا

أكفّ لساني عن صديقي وإن   إليه فإني عارق كل معرق أجأ

فألسنة كثير من أبناء اليوم أحلى من التمر[1]، ولكنها تخفي في صدورها سماً قاتلاً من النفاق، وأصحابها ﴿يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم﴾[2]. وقد عظمت رقتهم عند ذوي الجاه والسلطان؛ لما تصفه ألسنتهم... وحينما تبدل الحال بذي الجاه والسلطان؛ وذهب الخوف منهما عادوا إلى فكرتهم؛ وهذا مصداق قوله تعالى: ﴿فإذا ذهب الخوفُ سلقوكم بألسنة حداد﴾[3]، فكل افتراء ونفاق جزاء أصحابه النار؛ لقوله تعالى: ﴿وتصف ألسنتهم الكذب، أنَّ لهم الحُسْنى، لا جَرَمَ أن لهم النار﴾[4]. وأكثر ما خوّفنا الرسول الكريم من هؤلاء في قوله: [أخوف ما أخاف على أمتي كل منافق عليم اللسان][5].

---

[1] انظر ديوان طرفة بن العبد ١٧٨-١٧٩ فيما حكاه عن أصحاب تلك الألسنة المخادعة الكاذبة؛ ومجمع الأمثال ١٥٣/٢ وديوان أوس بن حجر ٥١ و٩٢ و١٠١ وديوان الأعشى ٨١.

[2] سورة الفتح ٤٨/ ١١ وانظر الجامع الصغير (رقم ١٧٥٣) وقال طرفة فيهم: الديوان ١٧٩).

وانظر ديوان الأعشى ٣٩١-٣٩٢.

[3] سورة الأحزاب ١٩/٣٣. وقال طرفة (الديوان ١٧٩):

[4] سورة النحل ٦٢/١٦.

[5] الجامع الصغير (رقم ٣٠٥) وانظر فيه (رقم ١٨٤٩ و٤٥٦٦ و٤٦٧٨) وقال طرفة (الديوان ١٧٨-١٧٩):

قلوبُ الذئاب الضارياتِ قلوبُهم وألْسُنُهم أحلى الذي أنت ذائقُهْ

فلستُ إليهم ما حييتُ براغبٍ ولا خَيْرَ في حُبِّ امرئٍ لا تطابقُهْ

إذا ما رأى الدنيا علي تهلّلتْ بإقبالها يوماً صفت لي خلائقُهْ

وإن آل خَطْبٌ أو ألمّت مُخِلّةٌ أوَصلّهُ فيها بدت لي صواعقُهْ

وصَرّ بنابيه عليّ تَغيّظاً وصَعّد أنفاساً، كأني خانقُهْ

إننا حين نرى أمثال هؤلاء ونرى في وجوههم الاستبشار نُخدع بهم بينما هم في الحقيقة يبسطون إلينا الأذى، ويرغبون في أن نكون مثلهم؛ لقوله تعالى: [ويَبْسُطوا إليكم أيديهم وألسنتهم بالسوء، ووَدُّوا لو تكفرون][1].

ونعتقد بأن أمثال هؤلاء قد يخدعون الناس بعض الوقت، بيد أنهم لن يستطيعوا خداعهم كل الوقت، وما يخدعون إلا أنفسهم، فاللسان دليل على عورات صاحبه مهما تصنَّع فيه واستتر وراءه، كقول طرفة بن العبد[2]:

وإنّ لسانَ المرءِ ما لم تكنْ له حَصَاةٌ، على عَوراته لدليلٌ

ونقول لهم منذرين وناهين إياهم عن **ألا تَنهَى لسانَكَ عن ردَاها؟!!**

وفي هذا المقام أثبت الحديث الشريف الذي تضمن كثيراً من تلك المعاني: "ليس البيان كثرة الكلام، ولكن فصْل فيما يحب الله ورسوله، وليس العي عي اللسان، ولكن قلّة المعرفة بالحق"[4].

---

[1] سورة الممتحنة ٢/٦٠.

[2] ديوان طرفة ٨٥. الحَصَاة: العقل، وانظر فيه ٣٩.

[3] اللسان (لسن)، وانظر ديوان طرفة ١٨٩.

[4] الجامع الصغير (رقم ٧٥٧٢) وانظر ديوان أوس بن حجر ٨٢.

عَدوٌ صديقٌ، عابسٌ، متبسِّمٌ يعاملني بالمكر حين أُوافِقُهْ

يجاملني جهراً، إذا ما لقيته وفي الصدر ما تهدا هَديراً شقاشِقُهْ

وقد يقول قائل: أطلت الحديث عن ألسنة النفاق والافتراء بعد أن تحدثت عن الألسنة الثرثارة... فللسان وظائف أخرى غير الوظائف السابقة كلها... فهو يؤدي في الحياة المادية خدمة كبرى؛ فهو أداة التذوق للأطعمة، وعضو الاستساغة للأشربة... فاللسان يلذ الطعم الجميل الحلو ويمج الكريه...

وهنا يدعوني موقف الحال في رؤيتي للواقع أن أتحدث عن حالتين بإيجاز شديد؛ وفي باب التندّر والتوجيه... ويظهر لي أن اللسان هذه الجارحة التذوقية قد فقدت وظيفتها عند الفقراء والمحتاجين؛ وليس هذا من قبيل فقدهم لحساسية التذوق في الطعام والشراب؛ ولكن لِما هم عليه من واقع اقتصادي متردٍ. فاستوى لديهم تذوق اللغة بتذوق الطعام واستساغة الشراب... ولم يعودوا يقيمون لعضو التذوق أي وزن. فهم يعبرون عن حاجاتهم ومشاعرهم بطرائقهم الخاصة؛ ويأكلون كل ما يصل إلى أيديهم أيّاً كان مذاقه، ويشربون الماء كدَراً أو صَفْوا على السواء... فهدفهم البقاء أحياء ليس غير.

وحين أفقدت الحياة الفقراء والمحتاجين حاسة التذوق من جارحة الفم وعضو النطق مرغمين فإنها أرهفتها عند الأغنياء والمترفين الذين أتخمتهم لذائذ الطعام وأنواعها وكثرتها. ولهذا طفقوا يتفننون في إقامة الولائم؛ ودعوة ذوي السلطان إليها لمآرب في أنفسهم... وفيهم يصدق قول الرسول الكريم: [سيكون رجالٌ من أمَّتي يأكلون ألوان الطعام، ويشربون ألوان الشراب، ويلبسون ألوان الثياب، ويتشدقون في الكلام، فأولئك شرار أمتي][1].

فهؤلاء نسُوا قوله تعالى: [وكلوا واشربوا ولا تسرفوا؛

---

[1] الجامع الصغير (رقم ٤٧٧٤) وانظر فيه (رقم ٤٧٧٦ و٤٨٥٩ و٤٨٦٠).

إنه لا يحب المسرفين][1].

ولو كنتَ محظوظاً وهُيئَ لك أن تدخل إلى إحدى ولائمهم لأدهشتك أنواع الأطباق وألوانها وأحجامها، قبل أن يبهرك ما مُلئت به مما لذَّ وطاب... ولخَلب فؤادك حجم البساط و الطاولة التي اتسعت لهذا الطعام وتلك الأشربة التي زاحمته من الشرق والغرب، ومن كل صنف ونوع... وهنا نتذكر مقولة ابن حمديس في طيب ريق صاحبته وحلاوته؛ فكأن شهده مزج بشهد كل لسان فقال[2]:

وكأنها ظنت حلاوةَ شَهْداً فذاقتْهُ بكُلِّ لسان مائها

ولشدة افتراء هؤلاء فقد استجلبوا الألسنة الذوَّاقة من كل مكان؛ فضلاً عن ألسنتهم خشية ألا يرضي مذاق طعامهم من دُعي إليه.

ولا يفوتنا في هذا المقام أن نشير إلى الكؤوس الملأى بالشراب؛ فهي لصفائها وحسن صنعتها وجمالها تريك شرابها ورغوته أشبه بلعاب الأفاعي... وقد أجاد أبو نواس حين صوّر لنا ذلك بقوله[3]:

ويُبدي لنا من جَوْفها مَسَّ مَزْجِها

كألسنةِ الحيَّاتِ تبدو منَ الذَّعْرِ

وما إن يصدر القوم عن مواضع الطعام والشراب حتى تسمع ألسنتهم التي تلوك الكلام فلا يبين وقد أثقلها الشراب، فضلاً عن ذهاب عقول أصحابها كما قال امرؤ القيس في أمثالهم من شاربي الخمرة[4]:

---

(1) سورة الأعراف ٣١/٧.

(2) المنتخب من أدب العرب ١٦٦/٣.

(3) ديوان أبي نواس ١٢٣.

(4) ديوان امرئ القيس ١١٥.

وكأنَّ شاربَها أصابَ لسانَه مُومٌ يخالط جِسْمَهُ بسَقامِ

فقد طفق أولئك القوم يشربون من كل كأس حتى فقدت ألسنتهم رهافة الذوق؛ فأقبلوا على كل شراب ممجوج وأنغام المغنين ترن في آذانهم، وتلوي خصور الحسان تراقص نظرات عيونهم؛ كما قال أبو نواس في وصف غلامه الذي صرف عنه الكأس وقد أخذ الشراب عقله، وأدركه ثقل اللسان[1]:

صَرَفْتُ الكأسَ عنه حين غنَّى وأنَّ لسانه منها ثقيلُ

ومن ثم فإنني أشفقت على نفسي من أمثال هؤلاء ومن ألسنتهم، كما أشفقت على حياتنا من عبثهم، وكأنهم ضَلُّوا عن صورة الحق وتجاهلوا أن الإنسان مميز بالنطق، وألسنة ستكون شاهدة يوم لا ينفع ندم؛ لقوله تعالى: [يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون][2].

ولن يستطيع المرء أن يحيط بكل ما قيل في اللسان وجمالياته في الحياة، وما يقع فيه من زيغ النفس الأسيرة لشهواتها... ولهذا يوصينا النبي خيراً بهذا اللسان؛ فهو الدليل الأول والأخير على أعضاء ابن آدم كلها: "إذا أصبح ابن آدم فإن الأعضاء كلها تكفّرُ اللسان. فتقول: اتق الله فينا، فإنما نحن بك، فإن استقمت استقمنا؛ وإن اعوججت اعوججنا"[3]. والمرء حيث يجعل نفسه ولسانه، والمرء حقاً بأصغريه قلبه ولسانه والجسم خَلْق مُصَوّر.

هكذا تبين لنا بما لا يقبل الشك أن "جمالية اللسان في اللغة والحياة" إنما هو بحث لساني للسعي وراء إبراز التقدير والتذوق للسان وربطه بالوجود الاجتماعي والإنساني قديماً

---

(1) ديوان أبي نواس ١٨٤.

(2) سورة النور ٢٤/٢٤.

(3) الجامع الصغير (رقم ٤٥٤).

وحديثاً... لنصل إلى مفهوم (هيجل) في علم الجمال؛ ومفاده أنه "فلسفة الفن الجميل؛ إنه فلسفة للوعي الجمالي، وفلسفة للقدرة على الإبداع الأكثر صدقاً وجمالاً؛ فلسفة للتذوق الأكثر قدرة على الاستيعاب"[1].

فالبحث مؤسس على دراسة اللسان وسماته في معانيه الدالة على معطيات الفكر والحياة؛ وارتباطها بالتصرفات الإنسانية؛ وللوصول به إلى أنه قيمة نقدية ولغوية... وهذا النمط من الدراسات يعد في طليعة الدراسات الألسنية اليوم. فالدراسات الألسنية ليست قاصرة على دراسة اللهجات وتاريخها، ودراسة الأصوات وطبيعتها، واختلاف نبرتها واختفاء أنماط منها... فاللسان "أداة للاتصال تُحلّلُ الخبرة الإنسانية من خلالها بطريقة تختلف من لسان إلى آخر في كل مُتَّحد اجتماعي"[2]. فأي لسان مهما كان جنسه وانتماؤه إنما يشكل وحدات ذات مضمون دلالي وذات تعبير صوتي... وقد اقتصرنا على المفهوم الدلالي، أو ما سمي بعلم الدلالة[3].

وكنا في ذلك كله لا نصدر عن انفعال عابر، وإنما كان البحث معنياً بالمسائل المشتركة بين اللغة والأدب والتراث والواقع ليوجد عنصراً جوهرياً فاعلاً بين الماضي والحاضر؛ وليربط بين مفهوم علم الجمال ومفهوم النقد التطبيقي دون أن يملي شروطاً معينة؛ وليرسي مفهوم الجمال في اللغة والحياة لألسن الناس... وهذا ما شددت عليه الأحاديث الشريفة من قبل؛ وليس للإنسان إلا ما سعى؛

والله من وراء القصد.

---

(1) دراسات في علم الجمال ٢٠.

(2) وظيفة الألسن وديناميتها ٣٥ ومابعدها، وراجع ما تقدم ص ١٥.

(3) انظر وظيفة الألسن ٣٨ وبعد و٧٠ ومابعدها.

المصادر والمراجع

١ ـ إبداع ونقد ـ حسين جمعة ـ دار النمير ـ دمشق ـ ٢٠٠٣م.

٢ ـ الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني ـ طبعة دار إحياء التراث العربي ـ بيروت.

٣ ـ الأمثال في النثر العربي القديم ـ الدكتور عبد المجيد عابدين ـ دار مصر للطباعة ـ ط١ ـ.

٤ ـ الأمثال والحكم ـ علي بن محمد بن حبيب الماوردي ـ تحقيق ودراسة الدكتور فؤاد عبد المنعم أحمد ـ مؤسسة شباب الجامعة ـ الإسكندرية ـ د/تا.

٥ ـ الإنصاف في مسائل الخلاف لأبي سعيد الأنباري ـ ومعه كتاب الانتصاف من الإنصاف ـ تأليف محمد محيي الدين عبد الحميد ـ المكتبة التجارية الكبرى بالقاهرة ـ د/تا.

٦ ـ البحوث المعاصرة في اللهجات المعاصرة (رصد وتحليل وتقويم) ـ د. عبد العزيز مطر ـ قطر ـ ١٩٩٤م.

٧ ـ تاريخ الأدب العربي ـ د. عمر فروخ ـ دار العلم للملايين ـ بيروت ـ ١٩٨٠م.

٨ ـ تاريخ علم اللغة منذ نشأتها حتى القرن العشرين ـ جورج مونين ـ ترجمة الدكتور بدر الدين القاسم ـ مطبعة جامعة دمشق ـ دمشق ـ ١٩٧٢م.

٩ ـ تاريخ اللغة العربية ـ جرجي زيدان ـ تقديم عصام نور الدين ـ دار الحداثة ـ بيروت ـ ط١ ـ ١٩٨٠م.

١٠ ـ تثقيف اللسان وتلقيح الجنان ـ لابن مكي الصقلي النحوي ـ ضبطه مصطفى عبد القادر عطا ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ ١٩٩٠م.

١١ ـ تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة ـ مجلس دائرة المعارف العثمانية ـ حيدر آباد الدكن، الهند ـ ١٣٧٧هـ.

١٢ ـ تراثنا كيف نفهمه ـ حسين مروة ـ مؤسسة الأبحاث العربية ـ بيروت ـ ط١ ـ ١٩٨٥م.

١٣ ـ التربية العامة ـ رونيه أوبير ـ ترجمة عبد الله عبد الدايم ـ
دار العلم للملايين ـ بيروت ـ ١٩٦٧م.
١٤ ـ التصميم التعليمي؛ نظرية وممارسة ـ محمد محمود الحيلة ـ
دار المسيرة والنشر والتوزيع ـ عمّان ـ ١٩٩٩م.
١٥ ـ التعريب بين التعمير والتخريب ـ حسن عايش.
١٦ ـ تعريب العلوم الإنسانية: قضايا ومقترحات ـ محمود إبراهيم.

١٧ ـ الجامع الصغير من أحاديث البشير النذير ـ الإمام السيوطي ـ تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ـ دار خدمات القرآن ـ القاهرة ـ د/تا.
١٨ ـ جمالية الخبر والإنشاء ـ د. حسين جمعة ـ اتحاد الكتّاب العرب ـ دمشق ـ ٢٠٠٥م.
١٩ ـ جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وأثرها الإصلاحي في الجزائر ـ أحمد الخطيب ـ المؤسسة الوطنية للكتاب ـ الجزائر.
٢٠ ـ جمهرة أشعار العرب ـ للخطابي ـ تحقيق علي محمد البجاوي ـ من فرائد التراث ـ القاهرة ـ د/تا.
٢١ ـ الجنى الداني في حروف المعاني ـ الحسن بن القاسم المرادي ـ تحقيق د. فخر الدين قباوة ومحمد نديم فاضل ـ منشورات دار الآفاق الجديدة ـ بيروت ـ ط٢ ـ ١٩٨٣م.
٢٢ ـ حروف المعاني بين الأصالة والحداثة ـ حسن عباس ـ اتحاد الكتّاب العرب ـ دمشق ـ ٢٠٠٠م.
٢٣ ـ حماسة البحتري ـ ضطبه كمال مصطفى ـ المكتبة التجارية بمصر ـ ١٩٢٩م.
٢٤ ـ الحيوان في الشعر الجاهلي ـ د. حسين جمعة ـ دار دانية بدمشق ـ ١٩٨٩م.

٢٥ ـ الخصائص لابن جني ـ تحقيق محمد علي النجار ـ دار الكتاب العربي ـ بيروت ـ د/تا.

٢٦ ـ خلق الإنسان ـ لأبي محمد اللغوي ـ تحقيق عبد الستار فراج ـ حكومة الكويت ـ ط ٢ ـ ١٩٨٥م.
٢٧ ـ دراسات في العربية وتاريخها ـ محمد الخضر حسين ـ المكتب الإسلامي ودار الفتح ـ دمشق ـ ط٢ ـ ١٩٦٠م.
٢٨ ـ دراسات في علم الجمال ـ مجاهد عبد المنعم ـ عالم الكتب ـ بيروت ـ ط ٢ ـ ١٩٨٦م.
٢٩ ـ دلائل الإعجاز ـ عبد القاهر الجرجاني ـ قرأه وعلّق عليه محمود محمد شاكر ـ مكتبة الخانجي ـ القاهرة ـ ١٩٨٤م.
٣٠ ـ ديوان الأعشى ـ د. محمد أحمد قاسم ـ المكتب الإسلامي ـ دمشق ـ ط ١ ـ ١٩٩٤م.
٣١ ـ ديوان امرئ القيس ـ تحيق محمد أبو الفضل إبراهيم ـ دار المعارف بمصر ـ ١٩٨٤م.
٣٢ ـ ديوان أوس بن حجر ـ تحقيق د. محمد يوسف نجم ـ دار صادر ـ بيروت ـ ط ٣ ـ ١٩٧٩م.
٣٣ ـ ديوان بشر بن أبي خازم ـ تحقيق عزة حسن ـ مطبوعات وزارة الثقافة ـ دمشق ـ ١٩٦٠م.
٣٤ ـ ديوان الحارث بن حلزة ـ تحقيق د. إميل بديع يعقوب ـ دار الكتاب العربي ـ بيروت ـ ١٩٩١م.
٣٥ ـ ديوان حافظ إبراهيم ـ ضبطه وصححه أحمد أمين وأحمد الزين وإبراهيم الإبياري ـ دار العودة ـ بيروت ـ صورة عن الطبعة الأولى ـ ط ١ ـ ١٩٣٧م.
٣٦ ـ ديوان حسان بن ثابت ـ تحقيق سيد حنفي حسنين ـ وزارة الثقافة ـ القاهرة ـ ١٩٧٤م.
٣٧ ـ ديوان الحطيئة ـ تحقيق د. نعمان طه ـ مكتبة الخانجي ـ القاهرة ـ ١٩٨٧م.

٣٨ ـ ديوان حميد بن ثور ـ تحقيق عبد العزيز الميمني ـ الدار القومية للطباعة ـ القاهرة ـ ١٩٦٥م.
٣٩ ـ ديوان شعر حاتم الطائي ـ تحقيق د. عادل سليمان جمال ـ مكتبة الخانجي بالقاهرة ـ ط ٢ ـ ١٩٩٠م.
٤٠ ـ ديوان شعر المثقب العبدي ـ تحقيق حسن كامل الصيرفي ـ معهد المخطوطات العربية ـ القاهرة ـ ١٩٩٧م.
٤١ ــ ديوان طرفة بن العبد ــ تحقيق درية الخطيب ولطفي الصقَّال ــ مجمع اللغة العربية بدمشق ــ ١٩٧٥م.
٤٢ ـ ديوان العجاج ـ تحقيق د. عبد الحفيظ السلطي ـ مكتبة أطلس ـ دمشق ـ ١٩٧١م.
٤٣ ـ ديوان عدي بن زيد ـ تحقيق محمد جبار المعيبد ـ وزارة الثقافة ـ بغداد ـ ١٩٦٥م.
٤٤ ـ ديوان عروة بن الورد ـ حققه عبد المعين الملوحي ـ وزارة الثقافة ـ دمشق ـ ١٩٦٦م.
٤٥ ـ ديوان عمرو بن كلثوم ـ صنعة د. علي أبو زيد ـ دار سعد الدين ـ دمشق ـ ١٩٩١م.
٤٦ ـ ديوان عنترة ـ تحقيق محمد سعيد مولوي ـ المكتب الإسلامي ـ دمشق ـ ١٩٧٠م.
٤٧ ـ ديوان كثير عزَّة ـ شرح قدري مايو ـ دار الجيل ـ بيروت ـ ١٩٩٥م.
٤٨ ـ ديوان المتنبي ـ شرح العكبري ـ ضبط مصطفى السقا وزميليه ـ دار المعرفة ـ بيروت ـ د/تا.
٤٩ ــ ديوان النابغة الذبياني ــ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ــ دار المعارف بمصر ــ ١٩٧٧م.
٥٠ ـ ديوان أبي نواس ـ تحقيق أحمد الغزالي ـ نشر دار الكتاب العربي ـ بيروت ـ د/تا.
٥١ ـ سؤالات نافع بن الأزرق ـ نشر وتحقيق د. إبراهيم السامرائي ـ مطبعة المعارف ـ بغداد ـ ١٩٦٨م.

٥٢ ـ شرح ديوان كعب بن زهير ـ الدار القومية للنشر والطباعة ـ القاهرة ـ ١٩٦٥م.
٥٣ ـ شرح ديوان لبيد بن ربيعة ـ تحقيق د. إحسان عباس ـ حكومة الكويت ـ ١٩٨٤م.
٥٤ ـ شرح شعر زهير بن أبي سلمى ـ تحقيق د. فخر الدين قباوة ـ دار الآفاق الجديدة ـ بيروت ـ ١٩٨٢م.

٥٥ ـ شرح القصائد السبع الطوال ـ تحقيق عبد السلام هارون ـ دار المعارف بمصر ـ ١٩٩٣م.
٥٦ ـ شروط النهضة ـ مالك بن نبي ـ دار الفكر المعاصر/ بيروت، ودار الفكر/ دمشق ـ ١٩٩٣م.

٥٧ ـ الشعب المصري في أمثاله العامية ـ إبراهيم أحمد شعلان ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ القاهرة ـ ١٩٧٢م.
٥٨ ـ شعر ربيعة الرقي ـ صنعة زكي العاني ـ وزارة الثقافة ـ دمشق ـ ١٩٨٠م.
٥٩ ـ شعر زيد الخيل الطائي ـ صنعة د. أحمد مختار البزرة ـ دار المأمون للتراث ـ دمشق ـ ١٩٨٨م.
٦٠ ـ شعر عبد الله بن الزبعري ـ تحقيق د. يحيى الجبوري ـ مؤسسة الرسالة ـ بيروت ـ ١٩٨١م.
٦١ ـ شعر عمرو بن معدي كرب الزبيدي ـ جمعه ونسقه مطاع الطرابيشي ـ مجمع اللغة العربية بدمشق ـ ط٢ ـ ١٩٨٥م.
٦٢ ـ الشعر والشعراء ـ تحقيق أحمد محمد شاكر ـ دار المعارف بمصر ـ ١٩٦٧م.
٦٣ ـ الشوارد في اللغة للصغَّاني ـ تحقيق عدنان أحمد الدوري ـ مطبعة المجمع العلمي العراقي ـ بغداد ـ ١٩٨٣م.

٦٤ ـ طبقات فحول الشعراء ـ لابن سلام ـ شرح محمود شاكر ـ مطبعة المدني ـ القاهرة.
٦٥ ــ العربية ــ المستشرق الألماني يوهان فُك ــ ترجمهُ وقدّم له الدكتور رمضان عبد التواب ــ مكتبة الخانجي بمصر ــ ١٩٨٠م.
٦٦ ــ الفتوحات المكية ــ الشيخ محيي الدين بن عربي ـ دار صادر ـ بيروت ـ د/تا.
٦٧ ــ فضائل القرآن ــ لابن سلام، تحقيق أحمد عبد الواحد الخياط ــ المغرب ــ ١٩٩٥م.
٦٨ ــ فن التعليم الوظيفي ــ ميشيل ماندير ــ ترجمة د. محمد خير الفوال وعبد الرحمن نجيب ــ سلسلة رضا للنشر ــ دمشق ــ ٢٠٠٣م.
٦٩ ــ في جمالية الكلمة ــ د. حسين جمعة ــ اتحاد الكتّاب العرب ــ دمشق ــ ٢٠٠٢م.
٧٠ ـ في علم اللغة العام ـ عبد الصبور شاهين ـ مؤسسة الرسالة ـ بيروت ط ٣ ـ ١٩٨٠م.
٧١ ـ في اللغة والفكر ـ عثمان أمين ـ معهد البحوث والدراسات العربية ـ جامعة الدول العربية ـ القاهرة ـ ١٩٦٧م.
٧٢ ــ في اللهجات العربية ــ الدكتور إبراهيم أنيس ــ مكتبة الأنجلو المصرية ــ القاهرة ــ ط٥ ــ ١٩٧٣م.

٧٣ ـ قراءات في أدب العصر الأموي ـ د. حسين جمعة ـ مطبعة جامعة دمشق ـ ١٩٩٢م.
٧٤ ـ كشاف اصطلاحات الفنون ـ التهانوي ـ وضع حواشيه أحمد حسن بسبح ـ منشورات دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ ط ١ ـ ١٩٩٠م.
٧٥ ــ لسان العرب ــ ابن منظور ــ دار صادر ــ بيروت.

٧٦ ـ اللغة بين المعيارية والوصفية ـ تمام حسان ـ دار الثقافة ـ الدار البيضاء ـ ١٩٨٠م.
٧٧ ـ اللغة العربية بين حماتها وخصومها ـ أنور الجندي ـ مطبعة الرسالة ـ بيروت.
٧٨ ـ اللغة العربية بين الوهم وسوء الفهم ـ كمال بشر ـ ط: دار غريّب ـ القاهرة ـ ١٩٩٩م.
٧٩ ـ اللغة العربية الحديثة ـ مونتيل، ط: كلينسيك ـ باريس.
٨٠ ـ اللغة العربية في عصر العولمة ـ د. أحمد بن محمد الضبيب ـ مكتبة العبيكان ـ الرياض ـ ط٢ ـ ٢٠٠٦م.
٨١ ـ اللغة والنحو بين القديم والحديث ـ عباس حسن ـ دار المعارف بمصر.
٨٢ ـ اللغة والهوية ـ جون جوزيف ـ ترجمة د. عبد النور خراقي ـ سلسلة عالم المعرفة ـ الكويت ـ آب/ أغسطس ـ ٢٠٠٧م.
٨٣ ـ مجالس ثعلب ـ تحقيق عبد السلام هارون ـ دار المعارف بمصر ـ ط ٤ ـ ١٩٨٠م.
٨٤ ـ مجمع الأمثال ـ الميداني ـ تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ـ دار المعرفة للطباعة ـ بيروت ـ لبنان ـ ١٩٥٥م.
٨٥ ـ مجموع أشعار العرب ـ تصحيح وليم بن الورد ـ دار الآفاق الجديدة ـ بيروت ـ ١٩٧٩م.
٨٦ ـ المحتسب ـ تحقيق علي النجدي ناصف وزميليه ـ القاهرة ـ ١٩٩٤م.
٨٧ ـ المدارس الحديثة ـ بول فولكييه ـ ترجمة عبد الله عبد الدايم وصلاح الدين المنجد وخالد قوطرش ـ مجلة المعلم العربي ـ العدد ٧+٨ ـ سنة ٦ ـ أيار/ حزيران ١٩٥٣م.
٨٨ ـ المدخل إلى اللغة السريانية وآدابها ـ د. أحمد ارحيّم هبو ـ جامعة حلب ـ ١٩٧٦م.
٨٩ ـ المدخل إلى اللغة الكنعانية، الفينيقية ـ د. أحمد حامدة ـ

جامعة دمشق ـ ١٩٩٤ ـ ١٩٩٥م.
٩٠ ـ مرايا للالتقاء والارتقاء بين الأدبين العربي والفارسي ـ د. حسين جمعة ـ اتحاد الكتاب العرب ـ دمشق ٢٠٠٦م.
٩١ ــ المستدرك ــ الحاكم القرطبي ــ دار المعرفة ــ بيروت ــ د/تا.
٩٢ ـ مشروع القومية العربية إلى أين ـ د. حسين جمعة ـ دار الفرقد ـ دمشق ـ تموز ٢٠٠٦م.
٩٣ ـ مشهد الحيوان في القصيدة الجاهلية ـ د. حسين جمعة ـ دار دانية ـ دمشق ـ ١٩٩٠م.
٩٤ ــ المصادر الأدبية واللغوية ــ د. عز الدين إسماعيل ــ دار المعارف بالقاهرة ــ ط٢ ــ ١٩٨٠م.
٩٥ــ مصنفات اللحن والتثقيف اللغوي ــ د. أحمد قدور ــ وزارة الثقافة ــ دمشق ــ ١٩٩٦م.
٩٦ ــ المعجم الكبير ــ ـ لأبي القاسم سليمان بن أحمد الطبراني (٢٦٠ ـ ٣٦٠ هـ) تحقيق حمدي عبد المجيد ـ بيروت ـ دار إحياء التراث العربي ـ ١٩٩١م.
٩٧ ـ المعرب والدخيل في المعاجم العربية ـ جهينة نصر علي ـ دار طلاس ـ دمشق ـ ط ١ ـ ٢٠٠١م.
٩٨ ـ المفرد العلم في رسم القلم ـ تأليف أحمد الهاشمي ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت.
٩٩ ـ المفضليات ـ للمفضل الضبّي ـ تحقيق أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون ـ دار المعارف بمصر ـ ١٩٧٦م.
١٠٠ــ المقاومة: قراءة في التاريخ والواقع والآفاق ــ د. حسين جمعة ــ اتحاد الكتّاب العرب ــ دمشق ــ ٢٠٠٧م.
١٠١ ــ من أسرار العربية ــ الدكتور إبراهيم أنيس ــ مكتبة الأنجلو المصرية ــ القاهرة ــ ط٥ ــ ١٩٧٥م.
١٠٢ ـ المنتخب من أدب العرب ـ جمعه أحمد الإسكندراني وزملاؤه ـ المطبعة الأميرية بالقاهرة ـ ١٩٥١م.

١٠٣ـ نازك الملائكة: ريادة وأصالة ـ تقديم د. حسين جمعة ـ سلسلة الكتاب الشهري ـ رقم١١ ـ اتحاد الكتّاب العرب ـ دمشق ـ ٢٠٠٨م.
١٠٤ ـ نصوص من الأدب العربي المعاصر ـ د. حسين جمعة ـ بالاشتراك ـ مطبعة جامعة دمشق ـ دمشق.
١٠٥ ـ نوادر المخطوطات ـ تحقيق عبد السلام هارون ـ مطبعة البابي الحلبي ـ مصر ـ ط ٢ ـ ١٩٧٣م.
١٠٦ ـ الواقع اللغوي العربي القديم ـ تأليف مجموعة باحثين ـ مراجعة وتقديم أ.د. عبد الجبار ناجي ـ بين الحكمة ـ بغداد ـ ط١ ـ ٢٠٠٦م.
١٠٧ ـ الوطن والمواطنة ـ د. حسين جمعة ـ مجلة الفكر السياسي ـ العدد ٢٥ ـ اتحاد الكتاب العرب ـ دمشق ـ ٢٠٠٦م.
١٠٨ ـ وظيفة الألسن وديناميتها ـ أندريه مارتينيه ـ ترجمة نادر سراج ـ دار المنتخب العربي ـ بيروت ـ ط ١ ـ ١٩٩٦م.

تنبيه

- هناك مراجع باللغات الأجنبية وردت في حواشي الدراسة؛ يرجع إليها في مظانها، ومثلها بعض الإحالات على دوريات وصحف محلية وعربية.

المحتوى

للمؤلف

أ. د حسين علي جمعة

- دكتوراه في الأدب العربي ـ جامعة دمشق.
- أستاذ الأدب القديم والدراسات العليا بجامعة دمشق.
- أستاذ الأدب القديم والنقد بجامعة قطر ١٩٩٢ ـ ١٩٩٧م.
- رئيس تحرير مجلة جامعة دمشق للآداب.
- رئيس فرع دمشق ٢٠٠٥.
- مقرر جمعية البحوث والدراسات باتحاد الكتاب العرب
- رئيس اتحاد الكتاب العرب.
- شارك في العديد من المؤتمرات والندوات العلمية محلياً وعربياً ودولياً.

من مؤلفاته المنشورة:

١ ـ الحيوان في الشعر الجاهلي ـ دار دانية ـ دمشق ـ ١٩٨٩.
٢ ـ مشهد الحيوان في القصيدة الجاهلية ـ دار دانية ـ دمشق ١٩٩٠.
٣ ـ الملل والنحل للشهرستاني ـ عرض وتعريف ـ دار دانية ـ دمشق ١٩٩٠.
٤ ـ الرثاء في الجاهلية والإسلام ـ دار معدّ ـ دمشق ـ ١٩٩١.
٥ ـ مختارات من الأدب في صدر الإسلام ـ بالاشتراك ـ جامعة دمشق ـ ١٩٩٢.
٦ ـ قراءات في أدب العصر الأموي ـ جامعة دمشق ـ ١٩٩٣.
٧ ـ قصيدة الرثاء ـ جذور وأطوار ـ دار النمير ومعد ـ دمشق ـ ١٩٩٨.
٨ ـ في جمالية الكلمة ـ دراسة بلاغية نقدية ـ اتحاد الكتاب العرب ـ دمشق ـ ٢٠٠٢.
٩ ـ ابن المقفع بين حضارتين ـ المستشارية الإيرانية بدمشق ـ ٢٠٠٣.
١٠ ـ إبداع ونقد ـ قراءة جديدة للإبداع في العصر العباسي ـ دار النمير ـ دمشق ـ ٢٠٠٣
١١ ـ المسبار في النقد الأدبي ـ اتحاد الكتاب العرب ـ دمشق ـ ٢٠٠٣.
١٢ ـ نصوص من الأدب العربي المعاصر ـ بالاشتراك ـ جامعة دمشق ـ ٢٠٠٥.
١٣ ـ جمالية الخبر والإنشاء ـ دراسة جمالية أسلوبية ـ اتحاد الكتاب العرب ـ دمشق ـ ٢٠٠٥
١٤ ـ التقابل الجمالي في النص القرآني ـ دار النمير ـ دمشق ـ ط١ ـ ٢٠٠٥.
١٥ ـ مرايا للالتقاء والارتقاء بين الأدبين العربي والفارسي ـ اتحاد الكتاب العرب ـ دمشق ـ ٢٠٠٦
١٦ ـ مشروع القومية العربية ـ دار الفرقد ـ دمشق ـ ٢٠٠٧
١٧ ـ المقاومة قراءة في التاريخ والواقع والآفاق ـ دراسة ـ اتحاد الكتاب العرب ـ دمشق ٢٠٠٧
١٨ ـ البيئة الطبيعية في الشعر الجاهلي ـ (مجلة عالم الفكر ـ الكويت مج ٢٥ ـ ١٩٧٧).
١٩ ـ ابن رشيق وآراؤه النقدية ـ (مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق ـ مج ٧٦ ـ ٢٠٠١).
٢٠ ـ جمالية التصوف مفهوماً ولغة ـ (مجلة الموقف الأدبي ـ عدد ٤٦٣).
٢١ ـ فكرة الزمان في الدراسات العربية ـ (مجلة التراث العربي ـ عدد ٨٦ ـ ٨٧).
٢٢ ـ جمالية اللسان في اللغة والحياة ـ (مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق ـ مج ٧٦ ـ ٢٠٠٢)
٢٣ ـ أدب الخيال في رسالة الغفران للمعري ـ (مجلة التراث العربي ـ عدد ٨٧).

غدت اللغة العربية شلال النبض الحي المتدفق في عروق أبنائها وقد شكّلها الأجداد ذات يوم معبرة عن نفسيتهم ومشاعرهم وأفكارهم وحياتهم فورّثوها أحفادهم حتى جاءت بنيتها متميزة طبيعة ووظيفة وهدفاً كتميزهم في ثباتها وتطورها كانت تتهادى على ذوب الكلمات الرقيقة ذات الحس الجمالي البديع...

لهذا يمدُّ هذا الكتاب أنظاره إليها وقد ران العجز والجهل، والتخلف والإهمال على غير قليل من أبنائها زمناً طويلاً، قصّروا في خدمتها. ولكنهم حين نظروا في المرآة نسبوا العجز والمرض والعلة إليها؛ وقد تجاهلوا أن اللغة التي أرادوها مرآتهم لا ترتقي إلا بارتقاء أهلها، فضعفها يكمن في ضعفهم، وتجدد أساليبها يأتي على مقدار إبداعاتهم في ابتكار الأساليب والتفنن بها... ومن ثم يمكنها أن ترود آفاقاً بديعة مخترعة طبيعة ووظيفة، وتغدو قادرة على إنتاج المصطلح والمعرفة والتقنية و... هكذا كانت أيام الأجداد، وهكذا يمكن أن تكون في قابل الأيام، وهي التي جابهت كل عوامل القهر والإلغاء والتشويه والتحريف...